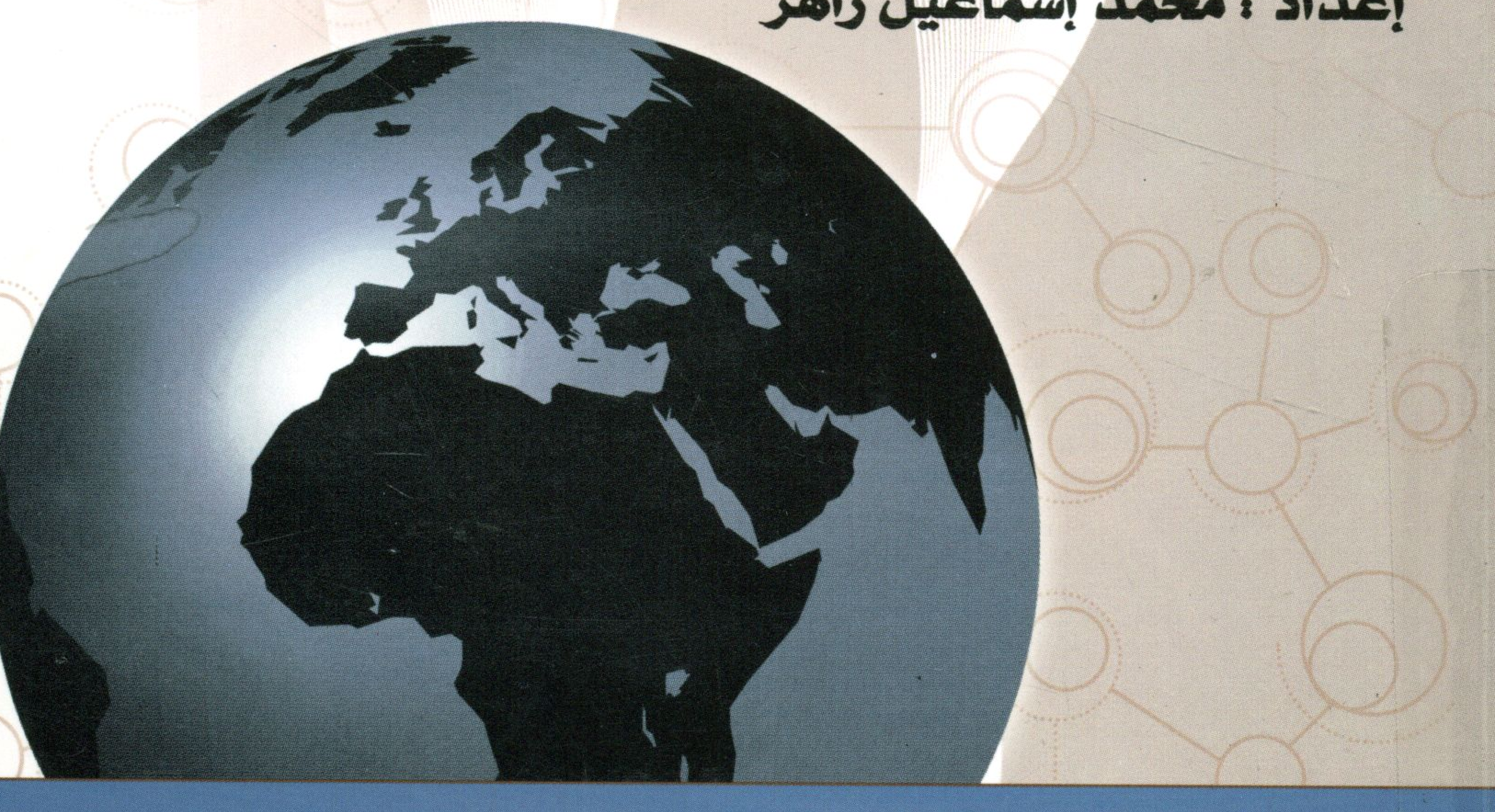


المركز العربي للدراسات الإستراتيجية
The Arab Center for Strategic Studies

أزمة الوعي العربي بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية

إعداد : محمد إسماعيل زاهر



قضايا استراتيجية
Strategic Issues

إهداء ٢٠٠٩

سعادة الرئيس / على ناصر محمد

سوريا

المركز العربي للدراسات الإستراتيجية
The Arab Center for Strategic Studies
Supervised By باشـــــراف
President Ali Nasser Mohammad الرئيس علي ناصر محمد

قضايا استراتيجية
STRATIGIC ISSUES

أزمة الوعي العربي بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية

إعداد: محمد إسماعيل زاهر

قضايا استراتيجية العدد (٧٠) اغسطس اب ٢٠٠٩

سلسلة أوراق شهرية

MONTHLY PAPERS SERIES

المركز الرئيسي
الجمهورية العربية السورية
دمشق ــ ص.ب: ٣٦٨٤٣ ــ ٣٦٨٤٤
فـاكـس: ٦١٣٢١١٢ ــ هاتف: ٦١٣٢١١١
acss@mail.sy

مركز القاهرة
جمهورية مصر العربية
فاكس: ٠٠٢٠٢-٥٧٨٦٠٣٧ ــ تليفون: ٠٠٢٠١٢-٧٩٠٩١١٥
maasalam@hotmail.com

مركز صنعاء
الجمهورية اليمنية
صنعاء: ص. ب ١٩٨٢٩
تليفون: ٢٣٦٠٦٢ - فاكس: ٢٢٩٢٦٩
acssyb@y.net.ye

مركز رأس الخيمة
دولة الإمارات العربية المتحدة
رأس الخيمة: ص. ب ١٠٤٢٨
تليفون: ٢٢٧٢٧٦٦ - فاكس ٢٢٧٢٩٧٧
acssrak@hotmail.com

المحتويات

التصـديـر

لعل هذه الدراسة توضح إلى حد كبير مدى الأزمة التي يعاني منها المثقف العربي في رؤيته لحوادث التاريخ الكبرى، تلك التي ينتج عنها تحولات اجتماعية وسياسية هائلة تنقل المجتمع من حالة إلى أخرى، أو تضعه في مواجهات وأمام تحديات لا قبل له بها. واختلاف الرؤى بين الناس أمر مفهوم حسب التكوين الثقافي لكل منهم ومن هنا تتعدد وجهات النظر حول أمر واحد. لكن غير المفهوم وغير المقبول أن تختلف نظرة المثقف الواحد حول حدثين من نوع واحد، ففي هذه الحالة تثار مسألة المعيارية وما يتصل بها من الانتقائية والاختيار في مسائل واضحة لا تحتمل اللبس. كما تثار مسألة الوعي بالتاريخ وحقيقة دروس التاريخ التي ينبغي أن يفيد منها الجميع : الحكام والسياسيون قبل عامة الدارسين وجمهرة المثقفين.

وقد اختار كاتبنا حدثين رئيسيين ليدير حولهما معنى أزمة الوعي بالزمن لدى المثقف العربي بشكل عام والمثقف المصري بشكل خاص. أولهما الحملة الفرنسية على مصر وبلاد الشام (يوليه ١٧٩٨)، وثانيهما الحملة الأمريكية على العراق (مارس ٢٠٠٣) .. كيف رأى المعاصرون للحملة الفرنسية هذه الحملة بين الصدمة والانبهار، وبين الرفض والاستهجان على أساس اختلاف التقاليد والثقافة. ثم كيف رأى المعاصرون للحملة الأمريكية الأخيرة هذه الحرب بين التأييد الصريح وبين الرفض الخفي والملتوي وفق حسابات معينة. وكيف استدعى معاصرو الحملة

الأمريكية بين مؤيد ومعارض ملابسات الحملة الفرنسية لتأييد وجهات النظر المتعارضة حتى دخلت المسألة في باب التأويل والتبرير أكثر من الشرح والتفسير.

وتكشف النصوص التي حرص كاتبنا على إثباتها حقيقة أزمة المثقف والمفكر في مواجهة الحوادث الكبرى التي يصنعها أصحاب السلطة والسلطان مما يثير في كل زمان ومكان مأزق المثقف تجاه السلطة وأفعالها. كما تكشف أيضا مصادر التقويم التي يستند إليها صاحب الرأي والتي تصنع وجهة نظره عند المعالجة. وعلى هذا فنحن أمام تركيبة عجيبة من المثقفين لكل منهم ثقافته التي كونته دون اختيار عمدي. وبمرور الأيام عرف كل منهم بصفة معينة ما بين إسلامي تقليدي، وإسلامي مستنير، وعلماني، ومادي جدلي، ومستشرق أكثر استشراقا من المستشرقين أنفسهم.

ويلاحظ في هذا السياق أن بعض المفكرين يحددون وجهة نظرهم في الموضوع حسب المناخ السياسي القائم وما يقتضيه من مواقف بعيدا عن المنهج العلمي في التفكير، ويدخل في التحديد أيضا وضع الكاتب اجتماعيا وتطلعاته السياسية. وهنا يعمد المفكر في تحديد رأيه إلى الرجوع إلى حوادث الماضي للبحث عما يؤكد وجهة نظره ويدعمها، وهذه تتصل بالقدرة على توظيفه المعارف التي تلقاها كل منهم. وأذكر في هذا الخصوص أن كاتبا كتب عن رفاعة الطهطاوي في ستينات القرن العشرين فجعل منه كاتبا اشتراكيا دعا إلى العدالة الاجتماعية والمساواة، ثم كتب نفس الكاتب عن الطهطاوي مرة أخرى في عصر الانفتاح الاقتصادي فجعل منه مبشرا بالرأسمالية والاقتصاد الحر !!.

وعندما يختلف المفكرون في الرؤى وفي التقويم لا يجدون في الدفاع عما يعتقدون -كما لاحظ المؤلف- إلا تبادل تهم الخيانة، والعمالة، والازدواجية، والشيوفونية، والجمود، والتخلف، أي أن كلا منهم يمسك بتلابيب الآخر ليس دفاعا عن الفكرة وإنما دفاعا عن المصالح التي يستهدفها من هذه الرؤية أو تلك.

لقد أحسن المؤلف اختيار الموضوع، وتمكن من معالجة أبعاد الأزمة، وكشف لنا مدى المأزق الذي يعاني منه المثقف عندما يتعين عليه أن يقول رأيا في مسألة ما، وجاءت لغته سهلة يسيرة تغري بالقراءة والمتابعة. ولقد فتح لنا بابا واسعا لمعالجة ذات القضية ولكن من زوايا أخرى لعله يتمكن من الكشف عنها في أعمال قادمة.

د.عاصم الدسوقي

مقـدمــة:

يسعى هذا البحث إلى دراسة أبرز مظــاهر الــوعى العربــى بالآخر الحضارى- الغربى- خاصة فى لحظات الأزمات الحضارية والتى تتمثل فى الضغط الخارجى على العالم العربــى بمــا يــؤثر بالسلب على معادلة الحداثة بطرفيها، الموروث الحضارى الــذاتى، والوافد الثقافى الغربى.

واختار الباحث نموذجا للوعى الحملة الفرنسية على مصر فــى عام ١٧٩٨ والحملة الأمريكية على المنطقة العربية والتى انتهــت باحتلال العراق فى عام ٢٠٠٣.

وتمثل الحملة الفرنسية بداية الوعى بالغرب وحضارة العــصر بعد قرون عديدة من العزلة شــهدتها مــصر والعــالمين العربــى والإسلامى، وهى اللحظة الزمنية التى يتخذها العديد من البــاحثين بداية للنهضة العربية الحديثة، وكمفجر لسؤال الحداثة والذى اتخــذ العديد من الصيغ لعل أشهرها وأبسطها: ماذا نأخذ من الغرب وماذا نترك؟ وما هو السبيل الأمثل للنهوض الحضارى؟

ولا يهدف الباحث إلى التأريخ للحملة الفرنسية بقدر ما يبحــث انعكاس هذه الحملة بأبعادها المختلفة على الوعى العربى خاصة بعد هزيمة ١٩٦٧، وهى لحظة تأزم حضارى أخــرى انتهــى عنــدها المشروع القومى نتيجة للضغط الغربى، وفتحــت البــاب واســعا لمراجعة العديد من الثوابت الفكرية والحضارية، خاصة أن الــوعى العربى منذ هزيمة ١٩٦٧ محمل بالعديد مــن الهــزائم الــسياسية

والحضارية، بدأت باتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٩ في تراجع سياسي واضح عن التزام مصر القومي وانتصار أكتوبر العسكري وانتهاء بسقوط بغداد في أبريل ٢٠٠٣، ومرورا بالغزو الصهيوني للبنان في عام ١٩٨٢، وتأزم القضية الفلسطينية وحرب الخليج الثانية في عام ١٩٩١. وبالنسبة للحملة الأمريكية، لا يسعى هذا البحث أيضا إلى التأريخ لجذورها وأهدافها بقدر ما يهدف إلى إبراز أن الوعي بهذه الحملة جاء محملا بآثار هزيمة ١٩٦٧ وتوابعها عبر رؤية تشاؤمية للتاريخ ترى الوضع العربي يسير من سيئ إلى أسوأ. وما يجمع بين الحملتين في هذا البحث ليس الرغبة في المقارنة بينهما بقدر النظر إلى الوعي العربي وإدراكه للآخر الغربي ما بين لحظة البداية- ١٧٩٨- واللحظة المعايشة حاليا، ومدى إدراك الغرب بتجلياته المختلفة: الحضارية والعسكرية والسياسية بما يؤثر على سؤال الحداثة وأهميته الراهنة بالنسبة لواقع الثقافة العربية.

المؤلف

القسم الأول:

الحملة الفرنسية: الوعى بالتاريخ من خلال الآخر:

تمهيـــد:

تربط الكثير من الأعمال الفكرية والتاريخية مـا بـين الحملـة الفرنسية على مصر فى عام ١٧٩٨ وبداية تاريخ مـصر الحـديث والمعاصر، وتتكرر فى هذا السياق نظريـة مؤداهـا أن الحملـة الفرنسية أخرجت مصر من قرون الركود العثمانى والمملوكى إلـى آفاق التحديث حتى أصبحت هذه النظرية من المسلمات التاريخيـة والفكرية لدى العديد من المثقفين [١]

وشهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين تبنى البعض لنظرية مضادة تعتبر الحملة الفرنسية إجهاضا لمحـاولات تحـديث ذاتيـة شهدتها مصر فى نهايات القرن الثامن عشر، وانتشرت هذه النظرية بعد أطروحة المفكر الأمريكى الماركسى بيتر جـران حـول هـذا الموضوع والتى ظهرت فى كتاب باللغة الإنجليزية للمرة الأولى فى عام ١٩٧٩ تحت عنوان "الجذور الإسلامية للرأسمالية، مـصر ١٧٦٠-١٨٤٠" [٢]

وفى أثناء عزم وزارة الثقافة الاحتفال بمرور مائتى عام على العلاقات المصرية الفرنسية فى عام ١٩٩٨ رأى البعض أن هذا الاحتفال لا يعدو أن يكون احتفالا بحملة عسكرية غازية، بينما ربط آخرون بين الاحتفال بالحملة والعدوان الأمريكى المتكرر على الأمة العربية ممثلة فى العراق، ورحب فريق ثالث بالاحتفال الثقافى مع التأكيد على رفض الغزو العسكرى بكافة أشكاله وصوره، بينما ذهب فريق رابع إلى قبول الحملة بشقيها العسكرى والحضارى، ورأى فريق خامس أن الحملة الفرنسية هى آخر أساطير التاريخ الفرنسي وراح يعمل جاهدا على إقصاء الحملة الفرنسية بوصفها حدثًا من داخل التاريخ الفرنسي ذاته.

ولا يعبر هذا الخلاف حول الحملة الفرنسية عن مجرد احتفال أرادت أن تقيمه وزارة الثقافة، ولا يقتصر فقط على مجرد تباين فى الرؤى التاريخية بين الأكاديميين والمثقفين كما يرى البعض [٣]

وفى محاولات العديد من المثقفين والباحثين للإجابة على سؤال الاختلاف حول الحملة الفرنسية وعلاقتها بتاريخ مصر الحديث والمعاصر تعددت الاجتهادات والرؤى، فذهب طارق البشرى إلى أن الاختلاف حول بدايات تاريخ مصر الحديث يخضع لتوجهات المثقف الفكرية والأيديولوجية سواء أكانت إسلامية أو علمانية أو ليبرالية [٤].

ويرى السيد يسن أن هذا الخلاف نتج عن صراع محتدم بين القوى التقليدية والقوى التحديثية على مستوى العالم العربى [٥]، وهو يقصد بالطبع الصراع بين التيارين الإسلامى والعلمانى حول حدود الغربى بوصفه نموذجاً معرفياً وحضارياً.

والمتابع للكتابات المختلفة حول الحملة الفرنسية يلاحظ أن الصراع الفكرى حولها لم يقتصر على الانشطار الإسلامى/ العلمانى، بل خضعت الحملة -كما سيأتى لاحقا- لرؤى ماركسية واستشراقية، بالإضافة إلى الرؤى الإسلامية والعلمانية العامة.

وامتدت هذه الرؤى الخلافية المتعددة زمنيا لتشمل الفترة السابقة على الحملة واللاحقة لها، فنجد الصراع على الفترة السابقة على الحملة من خلال تحليل ظروف المجتمع المصرى ومدى استطاعته من خلال عوامل ذاتية أن يتقدم، أو البحث وراء الجذور التاريخية التى دفعت فرنسا للتفكير فى غزو مصر.. إلخ.

وتم تجاوز الحملة إلى محمد على وهل كان يهدف إلى النهوض بمصر أم يسعى لتكوين إمبراطورية عربية؟ أو يرغب فى الحلول محل السلطان العثمانى؟ وتتم المقارنة كثيرا بين النهضة فى عهده والنهضة اليابانية فى نفس المرحلة [٦]. ويعتبره البعض بغض النظر عن دوافعه مؤسسا لمصر الحديثة [٧]، بينما يرى فيه آخرون "تلميذا للفرنسيس منفذا لسياسة الفرنجة" [٨] ومع أخذ كل هذه الرؤى

وطبيعة الخلاف بينها ووضع مقاصدها فى الاعتبار فإن الباحـــث لا يهتم هنا بالتأريخ للحملة الفرنسية بقدر ما يهدف إلى قراءة بعـــض الأعمال التى رصدت الحملة من زوايا متعددة وذلك انطلاقــا مــن فرضية مبدئية يضعها الباحث نصب عينيه وهو يقرأ هذه الأعمال. وتتلخص هذه الفرضية فى أن الحملة الفرنسية بوصفها حدثاً تاريخياً وحضارياً لا يعبر عن موقفنا الحضارى من الغرب وكيفية التعامل مع الآخر. ولا يمكن تبسيط هذا الحدث ووضعه فى سياق تــاريخى يقتصر على النزاع حول بداية تاريخ مصر الحـديث والمعاصـــر، وإنما يفترض الباحث أن الأعمال المتابعة للحملة الفرنـسية والتـــى سيرد ذكرها خلال المتن لاحقا قد أشارت إلى العديد من الإشكاليات الفكرية المعقدة التى أدت إلى تحول هــذه الفتـــرة المبحوثـــة إلـــى "أرابيسك" تاريخى وفكرى، مما أفرز فى النهاية حالة مـــن التـــأزم العقلى العنيف تجاه الآخر "الغرب"، وحالة مماثلة من التأزم العقلـــى بين المثقفين بعضهم البعض "منتجو هذه النصوص".

ويبدو للمتابع للواقع الثقافى العربـــى بعـــد هزيمـــة ١٩٦٧ أن الساحة الثقافية العربية قد شهدت تغيرات بنيوية جوهرية تركـــزت فى العديد من الظواهر الفكرية التـــى قـــام العديـــد مـــن البـــاحثين برصدها، ويمكن تلخيصها فى الظواهر التالية:

١-الاهتمام بتاريخ مصر الحديث والمعاصر، فيرصد لويس عوض بداية الاتجاه إلى التاريخ القومى الحديث بكثافة بعد عام ١٩٦٧ على النحو التالى "فقد لاحظت أن عديدين من علمائنا وباحثينا قد اتجهوا منذ ١٩٦٧ إلى نبش تاريخ مصر السابق على ثورة ٢٣ يوليو بعد أن كان هناك ما يشبه الانصراف عن دراسة أى شئ حدث قبل ١٩٥٢، بل بعد أن كان ما يشبه الإدانة الضمنية والعلنية أحيانا لأى شئ حدث قبل ١٩٥٢" [٩] وقد بدأ نفس الباحث فى كتابة تاريخ الفكر المصرى الحديث بعد هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ ليعرف (ماذا جرى؟ ولماذا جرى؟ وكيف النجاة؟) [١٠] *.

٢-العودة إلى الماضى: وهى ظاهرة لم تقتصر على التيار الإسلامى- وهى نظرية تعتبر من المسلمات لدى العديد من الباحثين- فالتيار الإسلامى لم ينتج مشاريع فكرية شبه متكاملة أو مترابطة عن التراث كما فعل حسين مروة فى "النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية" أو أدونيس فى "الثابت والمتحول". ثم فى فترات لاحقة وإرهاصًا لهزيمة يونيو ١٩٦٧ ظهرت أعمال الجابرى وحسن حنفى.. إلخ، والقائمة تطول على مستوى العالم العربى، وهى أعمال تفوق من حيث الكم أو الكيف أعمال الإسلاميين المستقلين أو المثقفين أمثال البشرى والعوا ومحمد عمارة وأحمد كمال أبو المجد وفهمى هويدى.... إلخ، مما يدل على أن ظاهرة

النكوص من الحاضر إلى الماضى- بغض النظر عن الأسباب- قد أغرقت النخبة المثقفة فى عالمنا العربى.

٣-الميل إلى التدين: سواء من جانب الأنظمة الحاكمة حيث عمت هذه الظاهرة الأنظمة العربية بعد الهزيمة (بل إننا يمكن ألا نستثنى نظاما عربيا واحداً لم يعتمد على المقولات الدينية) [١١] أو طرح تفسيرات دينية محتواها أن الهزيمة فى الأصل كانت لابتعاد المجتمع والنظام السياسى عن الدين، وأن حل المشاكل الاجتماعية والسياسية يمكن فى العودة إلى الدين [١٢]، واستخدام بعض الحوادث التى تبدو خارقة وترويجها إعلاميا مثل حادثة ظهور العذراء بكنيسة الزيتون عام ١٩٦٨ لامتصاص الغضب الشعبى [١٣] وهى الظروف التى مهدت الطريق بعد ذلك إلى مصر السبعينات وتحالف النظام مع جماعات الإسلام السياسى، بالإضافة إلى أسباب أخرى لا مجال هنا لذكرها.

٤-ظاهرة جلد الذات: امتلأت الحقبة التالية لهزيمة ١٩٦٧ بأعمال تقوم فى الأساس على النقد الذاتى، ويرى محمد عابد الجابرى أن الإنتاج الثقافى العربى فى الفترة التالية لهزيمة ١٩٦٧ قد يبدو بأكمله جلدا عنيفا للذات العربية الجريحة [١٤].

ومع تحالف النظام السياسى فى مصر مع جماعات الإسلام السياسى فى السبعينات وانتشار أحداث العنف ومحاولة أسلمة

المجتمع بالقوة فى الثمانينات والتسعينات بدا للمتابع أن مصر تعيش حالة من الانشطار الإسلامى- العلمانى وأن التراثيين الجدد لا يبحثون فى التراث عن حلول لمشاكلنا الحضارية والفكرية بقدر ما يقومون بوضع مصدات دفاع تراثية أمام الإسلاميين، فعندما كتب على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) فى عام ١٩٢٥ كان ذلك نتيجة لإلغاء الخلافة فى تركيا فى عام ١٩٢٤، وردا على محاولات الكثير تنصيب الملك فؤاد خليفة للمسلمين [(١٥)*]، بينما تبدو أعمال سعيد العشماوى (كالإسلام السياسى والخلافة الإسلامية.. إلخ) ردا على جماعات الإسلام السياسى. ويمكننا من نفس المنطلق أن نخضع (تحرير المرأة) لقاسم أمين وكل الأعمال الفكرية التى شهدتها مصر فى الفترة الأخيرة حول الحجاب لهذا المنطق، وهو منطق يتسم بالتأزم العقلى- السياسى- الثقافى؛ لأن هناك فارقاً كبيراً بين وقوف المثقف أمام السلطة (حالة على عبد الرازق)، ووقوفه لوجود قضية جوهرية وحيوية موجودة- قاسم أمين- ودخول تيارات ثقافية وسياسية فى تقاتل حضارى وكل منها ينفى الآخر على ساحة التراث. ولم يقتصر الأمر على الخلافة أو الحجاب بل تطور الصراع إلى مسألة الهوية[*] وأثيرت مرات عديدة مسألة عروبة مصر[*]، وبدا للمتابع أن مصر تعيش حالة من الانشطار الثقافى ما بين تيارات ثقافية وفكرية متعددة لم تكن الحقبة الناصرية

إلا فترة انقطاع مؤقت لها [١٦]، ولم يكن هذا الانقطاع نتيجة لإيمان هذه التيارات بأفكار المرحلة الناصرية أو نتيجة لتطورات ذاتية وفكرية شهدتها هذه التيارات بقدر ما كان نتيجة لممارسات سلطوية قامت بها السلطة الناصرية تجاه هذه التيارات- مثل اعتقال الإخوان المسلمين والشيوعيين، ثم احتواء السلطة للاتجاهات اليسارية المصرية بدءا من عام ١٩٦٤ [١٧] ومع عدم قدرة السلطة الناصرية على الحسم الفكرى التام تجاه أى من هذه التيارات لم تستطع أيضا أن تقوم بحسم اجتماعى أو اقتصادى تام تجاه أفكارها الاشتراكية.*

ولذا عندما انهار المشروع القومى مع هزيمة ١٩٦٧ عادت كل هذه التيارات للصراع الفكرى والسياسى، وإن كان من ظروف مغايرة لما قبل ١٩٥٢، ومما زاد الصراع ضراوة وجود إسرائيل بوصفها كياناً معقداً وغريباً بالنسبة للمثقف المصرى، وهو ما يرصده أحمد بهاء الدين، فإسرائيل بكيانها الاستعمارى الغريب (والذى يحمل ظلالاً شتى تبدأ من الأسطورة الدينية إلى استخدام أعقد وسائل العلم الحديث أدت إلى ردود فعل متضاربة فى العقل العربى العام، فالذين رأوا فى إسرائيل جانبها القائم على الأسطورة الدينية وجدوا أن الدفاع ضدها يكون فى الرجوع إلى الماضى، واعتبروا أن تسلل الأفكار الجديدة إلى المجتمع كان سبب الهزائم، والذين رأوا فى إسرائيل نظامها القائم على الحريات الليبرالية وتعدد

الأحزاب قالوا إن الحل فى الأخذ بالليبرالية الأوروبية، والذين رأوا الأساس فى الظاهرة الإسرائيلية هو ارتباطها العضوى بالاستعمار العالمى قرروا أن الحل هو الثورة الاجتماعية الشاملة بل والثورة العالمية) [١٨] وهو ما فتح الساحة للصراع الفكرى بين التيارات المختلفة. وامتد هذا الصراع إلى موضوع تاريخ مصر الحديث والمعاصر، وهل كان مجيئ الحملة إلى مصر سببا للنهوض أم انتكاسة لجذور نهضة كانت قائمة بالفعل؟

وانطلاقا من ظاهرة الاهتمام بتاريخ مصر الحديث والمعاصر والعودة إلى المراحل التأسيسية فيه لمعرفة لماذا انتكسنا أمام إسرائيل قام لويس عوض بنشر الجزء الأول من تاريخ الفكر المصرى الحديث فى عام ١٩٦٩، ثم رد عليه من وجهة نظر مغايرة محمد جلال كشك فى كتابه و(دخلت الخيل الأزهر) فى عام ١٩٧١، ثم توالت الأعمال الخاصة بالحملة الفرنسية بعد ذلك تحمل وجهات النظر الثلاثة المعروفة، إما مؤيدة أو معارضة أو توفيقية.

ويقوم الجزء التالى من هذا البحث بعرض وجهات النظر المختلفة تجاه الحملة الفرنسية من خلال المحاور التالية:

١-المحور الأول: الحملة الفرنسية من خلال التأريخ للنهضة العربية الحديثة

تبدأ الأعمال الفكرية العديدة التى تؤرخ للنظام الثقافى العربى الحديث عادة بالحملة الفرنسية. وهذه الأعمال لا تؤرخ لبداية العصر الحديث فى مصر والعالم العربى بقدر ما تبحث فى التاريخ النهضوى وبداية تعرف العرب على الأفكار الغربية الحديثة.

حيث يبدأ حليم بركات المرحلة التأسيسية للنهضة العربية الحديثة على النحو التالى (يعيد الباحثون بدء النهضة عادة إلى سنة ١٧٩٨ عندما غزا نابليون مصر؛ باعتبار أن هذا التاريخ يمثل المجابهة المباشرة بين الغرب والشرق، أو بالأحرى بين الخلافة العثمانية وأوروبا الصناعية فى المشرق العربى، وبين مصر وإنكلترا، وبين المغرب العربى وفرنسا، وفى إطار هذه المواجهات عرف عصر النهضة الاحتكاك بالغرب وانتشار التعليم ونشوء الجمعيات الثقافية والحركات السياسية وبدأت تتوالى الأسئلة من مواقع مختلفة: ما هى أسباب ضعف الشرق حتى يتمكن الغرب من اجتياحه والتغلب عليه؟ وما الداء وما الدواء؟ وكيف يكون التعامل مع الغرب وما طبيعته؟ هل نقبل على الثقافة الغربية أم نرفضها كليا أو جزئيا؟ كيف ننهض من كبوتنا ونصلح من حياتنا) [١٩]

ويطلق محمد كامل ضاهر على ما أحدثته الحملة الفرنسية فـــى الوعى العربى تعبير "صدمة الحداثة" [٢٠] وهــذه الــصدمة أفاقــت الإنسان العربى من سباته الطويل (منذ قرنين من الزمان تقريبا بدأ الإنسان العربى يستيقظ من سبات عميق إثر اصــطدامه بحــضارة عالم جديدة لا تمت إلى مفاهيمه عن الكون والحياة بشئ) [٢١] .

وبعد أن يقارن أدونيس بين النهايات المختلفة للفترة السابقة على ما سمى بالنهضة العربية الحديثة والتى أطلق عليها (الفترة المظلمة) [٢٢] والتى يحصرها فى الفترة من سقوط بغداد على يد هولاكو سنة ١٢٥٨ حتى سنة ١٧٩٨ أو فى أواخر القرن التاسع عــشر أو فـــى إعادة الدستور العثمانى فى عام ١٩٠٨ أو بانتهاء الحرب العالميـــة الأولى ١٩١٨[٢٣] ثم يختار أدونــيس عـــام ١٧٩٨ لنهايـــة الفتـــرة المظلمة وبداية عصر النهضة حيث (لم يؤثر الحضور الفرنسى فى طراز التفكير وحسب وإنما أثر كذلك فى طراز الحياة) [٢٤] .

ويبرز ماهر الشريف دور الحملة الفرنسية فى إدراك العـــرب لمدى تخلفهم فقد (ظهرت إشكالية النهضة العربية فى مطلع القـــرن التاسع عشر بعد أن بدأ العرب والمسلمون يتملكون الوعى بتخلفهم، ويدركون حاجتهم إلى النهوض بعد عصور طويلة من الانحطـــاط. ولقد لعب الاحتكاك المباشر بالغرب دورا رئيسيا فى ظهـــور هـــذه الإشكالية) [٢٥] ويعرف نفس الباحث خطاب عصر النهـــضة (بأنـــه

النص الذى أنتجه المثقف العربى الحديث الذى راح يظهر منذ الربع الثانى من القرن التاسع عشر إثر صدمة الاحتكاك بـالغرب وإدراك طبيعة الفرق بين التأخر والتقدم) [٢٦] وعلى الرغم من عودة ألبرت حورانى إلى بدايات القرن الثامن عشر كأول محاولة تجـرى فـى الدولة العثمانية للإصلاح على أساس عسكرى غربى [٢٧] ثم يعـدد الباحث محاولات الإصلاح العثمانية طوال القرن الثامن عشر إلا أن تأريخه للفكر العربى يبدأ من عام ١٧٩٨[٢٨].

ويؤكد محمد عابد الجابرى علـى الأبعـاد المختلفـة للحملـة الفرنسية على مصر من خلال رؤية كلية لأوضاع مصر والحداثـة الأوروبية آنذاك (لقد نقلت حملة نابليون معها إلى مـصر الـدعائم الثلاثة التى قامت عليهـا الحداثـة الأوروبيـة: القـوة والمنافـسة والمعرفة. وإذا شئنا التعبير عن هذه العناصر بما يعكس علاقتها مع المشروع النهضوى العربى قلنا إنها: التوسع الاستعمارى، والتنافس الأوروبى الإنجليزى– الفرنسى، والفكر التحديثى) [٢٩] .

تقوم هذه الأعمال إذن على التأريخ للنهضة العربيـة الحديثـة وتبدأ هذه الأعمال بالحملة الفرنسية كبداية لهذه النهضة ولا تتطرق إلى أحداث الحملة الفرنسية أو ظروف المجتمع المصرى قبل وأثناء الحملة، بل هى تضع عام دخول نابليون إلى مصر "١٧٩٨" كعلامة فارقة على بدء النهضة الحديثة وكتاريخ حاسم وفاصل بين عالمين،

الأول يمثل فترات الظلام والآخر يعبر عن التحديث والنهوض، وذلك من خلال عملية جدلية تشمل التحديثات التى أدخلها الفرنسيون إلى مصر، ووعى المصريين بمدى تخلفهم إزاء الحضارة الوافدة. وعلى الرغم من تطرق بعض هذه الأعمال إلى محاولات الإصلاح التى تمت داخل القرن الثامن عشر ورصدها للعلاقة مع الغرب قبل الحملة من خلال المدارس أو الإرساليات أو المطابع.. إلخ [٣٠] فإنها تصر على الصدمة العسكرية والحضارية التى أحدثتها حملة نابليون كبداية للنهضة الحديثة.

والملاحظة الأساسية على هذه الأعمال وغيرها أنها لم تكتف بحملة نابليون كعام لميلاد النهضة العربية الحديثة، ولكنها حددت نهايات هذه النهضة بأعوام تبدو فى أغلبها مرتبطة بأحداث غربية ذات تأثيرات مهمة فى العالم العربى، فعصر النهضة ينتهى عند حليم بركات فى عام ١٩١٤ [٣١] وعند ألبرت حورانى فى عام ١٩٣٩ [٣٢] أما محمد جابر الانصارى فيختار عام ١٩٣٠ لنهاية عصر النهضة العربى [٣٣] ويحدد على المحافظة عام ١٩١٤ لنفس النهاية [٣٤].

ويرتبط عام ١٩١٤ ببداية الحرب العالمية الأولى، وعام ١٩٣٩ ببداية الحرب العالمية الثانية، وعام ١٩٣٠ بالضائقة الاقتصادية التى شهدها الغرب فى الثلاثينات. وعلى الرغم من

انعكاس هذه الأحداث على العالم العربى بتأثيرات مختلفة ومهمة فى المجالات الثقافية والسياسية المتعددة فإنها تبقى أحداثا ذات دلالتين:

الأولى: أنها أحداث صنعها الآخر الحضارى فى الأساس، ووضعها بوصفها علامات فارقة فى التاريخ الفكرى العربى الحديث يمثل تبعية ثقافية شبه مطلقة للغرب.

الثانية: أن هذه التواريخ تمثل هزائم حضارية وسياسية وعسكرية أمام الآخر، والتأكيد عليها وتكرارها ووضعها كمحطات أساسية وفارقة فى النظام الثقافى العربى- إن جاز هذا التعبير- يضخم من ظاهرة جلد الذات.

ومن داخل هذه الأعمال- ما أورده الباحث عينة ممثلة ولكنه يعتقد أنها تنطبق على الغالبية العظمى من الأعمال المؤرخة للنظام الثقافى العربى- يتم القفز سريعا على أحداث قد تبدو مرتبطة أكثر بنضال المجتمع المصرى والعربى فيتم التأكيد على عام ١٩١٤ وتجاهل، أو شبه تجاهل عام ١٩١٩، فى التاريخ النهضوى وليس السياسى، وفى الإطار المتقدم زمنيا يتم الإغراق فى هزيمة ١٩٦٧ وتجاهل حرب أكتوبر ١٩٧٣، وحتى وإن كانت الانتصارات التى حققتها الذات محدودة ولم يتم تحقيق الاستفادة الكاملة منها فإن الإجماع على الهزائم الحضارية والسياسية بصورة متكررة يخلق دائرة شبه مغلقة لا فكاك للذات العربية منها.

٢-المحور الثانى: الحملة الفرنسية من منظور الوعى التاريخى

يقوم هذا المحور على عرض وجهتى النظر الخاصتين بالموقف من الحملة الفرنسية من خلال استعراض الخلاف على أحداث وشخصيات مهمة من داخل هذا الحدث التاريخى، وتعتبر وجهة النظر الأولى الحملة الفرنسية بداية تاريخ مصر الحديث، بينما ترى الأخرى أن الحملة أجهضت محاولات تحديث ذاتية شهدتها مصر فى أواخر القرن الثامن عشر. وهناك وجهة نظر ثالثة حاولت أن تتوسط الرؤيتين السابقتين فتقبل الشق الحضارى من الحملة وترفض وجهها العسكرى.

أولا: الحملة الفرنسية كبداية لتاريخ مصر الحديث:

يعتبر الجزء الأول من كتاب تاريخ الفكر المصرى الحديث [٣٥] من أوائل الأعمال الفكرية بعد الهزيمة فى يونيو ١٩٦٧ والتى رجعت لتنقب وتبحث فى التاريخ الحديث، إذ صدر هذا الجزء كتابًا فى عام ١٩٦٩.

وتتشكل رؤية الكاتب للحملة الفرنسية من خلال رؤيته لأوضاع مصر قبل الحملة الفرنسية، ولما استحدثه الفرنسيون فى مصر، وموقفه من عدة شخصيات مثل بونابرت وسليمان الحلبى.

فى البداية يركز لويس عوض على ثورة همام أميـــر الـــصعيد والتى بدأت فى عام ١٧٣٦ (٣٦)، وتتبع أهمية هذه الثورة من أهدافها الوطنية والاجتماعيـــة، إذ كانـــت تهـــدف إلـــى اســـتقلال مـــصر واستخلاصها من أيدى المماليك. وأما الهدف الاجتماعى فيـــتلخص فى تمليك الأرض للمصريين وتوزيعها على الفلاحـــين (٣٧) وعلـــى مدى العديد من الصفحات يسعى الكاتب جاهدا إلى إثبات أن ثـــورة همام كانت تجربة فريدة للنظام الجمهورى الحديث (٣٨) .

ويعتبر نفس الكاتب فى مكان آخر أن حجة عام ١٧٩٥ والتـــى كتبها الوالى والمماليك لبيان الحقوق والواجبات بين الحاكم والرعية خطوة نحو تبلور فكرة الدستور (٣٩) .

إذن يتم الانطلاق هنا من بعد وطنى يسعى إلى التأكيـــد علـــى الثورات والهبات الشعبية السابقة على الحملة الفرنسية مع التركيـــز على البعد الاقتصادى الاجتماعى.

ويرى لويس عوض أن الحملة الفرنسية (كانت الحـــد الفاصـــل بين عالمين مختلفين كل الاختلاف: عالم وسيط يمتد بطول العـــصر التركى المملوكى منتهيا فى عام ١٧٩٨ فيه عـــدد مـــن الثـــورات الاقتصادية البحتة التى لم تخرج عن أو يخرج عنها أى فكر سياسى أو اجتماعى أو ثقافى معروف. وعالم لم تحدث فيه أية حركـــة إلا

وكانت مقترنة بمذهب سياسى واضح أو بأيديولوجيا اجتماعية واضحة أو بتيار ثقافى واضح أياً كان اتجاهه) [٤٠].

ومن هذا المنطلق تصبح حملة بونابرت على مصر هى المفجر الأساسى لبناء هيكل الدولة على الطراز الحديث، والسبب المباشر فى التطورات الاقتصادية والمادية التى استجدت على مصر نتيجة لتصفية الإقطاع التركى المملوكى أثناء الحملة، والتطورات الاجتماعية التى استجدت فى مصر من خلال الأدب والصحافة ونشأة التيارات الفكرية والأدبية فيما بعد [٤١].

أما البيان الذى أرسله نابليون ليوزع فى الإسكندرية قبل وأثناء دخوله إليها فقد أدى إلى (تغذية الروح القومية المصرية وإقناع المصرى بالثورة على المماليك ثم الانفصال عن الباب العالى) [٤٢].

وبعد دخول نابليون إلى القاهرة يقوم بتشكيل أول وزارة مصرية [٤٣] تم إنشاء أول برلمان مصرى عرف يومئذ بالديوان العام [٤٤] وقد أدى هذا التجديد فى نظام الحكم كما يرى لويس عوض إلى ثلاث نتائج رئيسية.

١-أن الشعب المصرى من خلال الاعتراف الشكلى أو القانونى أو الدستورى بحقوقه المغتصبة خلال فترات الحكم التركى-المملوكى قد أدرك أنه صاحب الحق الأول فى حكم بلاده [٤٥].

٢-أن الحكومة المصرية التى أقامها الفرنسيون كانت بمثابة تدريب أولى للمصريين على تقلد السلطة ومسئولياتها.

٣-أن الحكم المصرى استطاع أن يستخلص للمصريين الكثير من مصالحهم الضائعة، وأن يحل لهم الكثير من مشكلاتهم المعلقة فى الدوائر التى كانت لا تتعارض أو لا تتداخل مع مصالح الفرنسيين [٤٦].

وبالنسبة لنابليون يرى لويس عوض أنه الرجل الذى (جاء ومن ورائه رصيد ضخم من مبادئ الثورة الفرنسية فكان فى استطاعته أن ينادى بلا تحفظ بتصفية الإقطاع أو الالتزام المملوكى وإلغاء الامتيازات الطبقية بل وإلغاء الفوارق بين الطبقات) [٤٧] ويتم وصفه بـ (رجل الأقدار الذى يقع على يديه ذلك التغيير العظيم) [٤٨].

ويتوقف لويس عوض طويلا أمام القوانين التى طبقها الفرنسيون فى مصر والمحاكمة التى أجروها لسليمان الحلبى باعتباره حدثا لم تشهده مصر طوال العصر التركى- المملوكى- المحاكمات القانونية- ويتم وصف سليمان الحلبى (بقاتل كليبر) [٤٩].

أما بالنسبة للجبرتى بوصفه مؤرخاً عاصر الحملة الفرنسية ومصدرًا اعتمد عليه لويس عوض فهو يراه متفتحا فى المواقف التى أعجب فيها بالحضارة الفرنسية [٥٠] وينقده فى أحيان أخرى مثل موقفه من سلوك بعض النساء مع جنود الحملة الفرنسية،

ويرثى له فى المواقف التى يعبر فيها الجبرتى عن دهشته بقيام الفرنسيين بغزو مصر وانكسار المماليك أمامهم [٥١] .

أما بالنسبة لعدة أحداث خلافية مثل ثورة القاهرة الأولى وأسبابها فهو يرى أن أسباب الثورة جاءت نتيجة لتعطيل أعمال واجتماعات أول برلمان عرفته البلاد فى ٢٠ أكتوبر ١٧٩٨ وليس لمجرد الاحتجاج على فرض الضرائب العقارية ورسوم الشهر العقارى والقروض الإجبارية [٥٢] ونتيجة لهذه الثورة أصدر نابليون مرسوم ٢١ ديسمبر ١٧٩٨ والخاص بتأسيس الديوان العمومى والديوان الخصوصى أو (البرلمان ومجلس الوزراء) [٥٣] .

وتتم المقارنة ما بين هذا المرسوم ودستور ١٩٢٣ والذى جاء كنتيجة لثورة ١٩١٩ [٥٤].

ويصبح عام ١٨٠٠ كما يرى الكاتب هو عام تحرير المرأة المصرية والذى جاء كنتيجة لمخالطة (المصريات للفرنسيين) [٥٥] .

وفى عام ١٩٩٩ صدر كتاب مصر والحملة الفرنسية لمحمد سعيد العشماوى [٥٦] . وعلى العكس من الرؤية السابقة والتى سعت إلى إبراز الهبات والثورات الشعبية السابقة على الحملة الفرنسية فإن هذه الدراسة تذهب بعد عرض ملخص لمساوئ الحكم التركى- المملوكى إلى نتيجة مؤداها (أن مصر لم تكن لها حكومة ولا شريعة ولا نظام ولا عدل ولا أمن فى ذلك العهد الفاسد من حكم العثمانيين

سنة١٥١٧ حتى تاريخ بداية الحملة الفرنسية) [٥٧]. وبعد استعراض آخر لأوضاع المجتمع وحياة الشعب يصل نفس المؤلف إلى نتيجة مقاربة للنتيجة الأولى (تلك صور، تكاد تنطق بما فيها من بساطة التعبير وسلامة القول وبراءة القصد– يقصد استعراض الجبرتى لأحوال مصر قبل الحملة– ومنها يظهر بوضوح وجلاء أنه لم يكن يوجد شعب بالمعنى الحقيقى أو مجتمع بالوصف الصحيح أو حكومة بالمعايير المعتبرة، إنما توجد أخلاط متباينة وأمشاج متنافرة وقادة طغاة مستبدون، والكل على جهالة وبطالة وعماء وغشومة، وأنانية وعدوانية) [٥٨].

وعن العلاقة بين المصريين والفرنسيين أثناء الحملة يرى الكاتب أن الألفة والمحبة جمعت بينهما حيث {قامت بين المصريين والفرنسيين (الغزاة) محبة ومودة فصاروا كأنهم شعب واحد أو جماعة واحدة}[٥٩] وكان الفرنسيون (يدفعون ثمن ما يأكلون أو يشربون ثم يذهبون إلى حالهم دون ضجيج أو عدوان) [٦٠].

ويذهب المؤلف إلى إعجابه بما أقامه الفرنسيون فى مصر من مدافن ومنتزهات، بالإضافة إلى المجمع العلمى والديوان.. إلخ [٦١].

أما عن أسباب ثورة القاهرة الأولى فعلى العكس من رؤية لويس عوض لأسبابها يرى العشماوى أنها قامت بسبب فرض الضرائب والعوائد على العقارات والتجارة [٦٢] ويقارن ما بين

أسلوب الجمع الفرنسي للضرائب وهو الأسلوب القانوني المنظم [٦٣] وأسلوب جمع الأتراك لها وهو أسلوب (همجي) [٦٤] ويستند إلى وصف الجبرتي لمن قام بهذه الثورة على النحو التالي {جماعة من العامة ووافقهم بعض المتعممين الذين لم يصفهم الجبرتي بأنهم شيوخ وانضم إليهم الغوغاء والحشرات (أى سفلة الأسافل) والزعر (وهم سيئو الخلق قليلو الخبرة) بلا رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم}[٦٥] *.

ويستند المؤلف كثيرا لأوصاف الجبرتي حول الطبقات الشعبية حيث يصفهم (بالعامة والأوباش والحشرات) [٦٦].

وبعد أن يستعرض المؤلف محاكمة سليمان الحلبي يصفه كثيرا بقاتل كليبر وبأنه (ليس بطلا وطنيا أو مجاهداً مسلما) [٦٧].

وتتم المقارنة كثيرا بين الحكم التركي الفرنسي وبيان تفوق الثاني وإنسانيته على الأول بمراحل ويتكرر كثيرا- في أنحاء متفرقة من الكتاب- السؤال عن أسباب ثورة المصريين على الحكم الفرنسي، ويتم الخروج بنتيجة مؤداها أن من قام بالثورة من المصريين قلة من العوام والغوغاء، أما بقية المصريين فكانوا يعيشون في مودة وسلام مع الفرنسيين، وقد أقام الفرنسيون العديد من الإصلاحات في مصر بعكس الأتراك الذين أهملوا مصر (كل هذا الإهمال واستبعدوا أهلها ولم يضبطوا فيها الأعمال الإدارية

ولا أقاموا أى إنشاءات مادية) [٦٨] وبالنسبة لأحوال مصر بعد خروج الحملة فقد عادت إلى أسوأ مما كانت عليه قبل مقدم الحملة [٦٩].

تتفق الرؤيتان السابقتان فى التأكيد على أن النهضة العربية الحديثة قد بدأت مع مقدم الحملة الفرنسية إلى مصر فى عام ١٧٩٨ وإن كان لويس عوض بحث في ثورة همام أمير الصعيد لينقب عن نقطة البداية فى الصراعات الوطنية والطبقية من خلال رصد هبات الجماهير ضد الولاة العثمانيين وبكوات المماليك [٧٠]، أما سعيد العشماوى فيعتبر الفترة السابقة على الحملة الفرنسية فترة مظلمة أشبه ما تكون بالعصور الأوروبية المظلمة. وانطلاقا من أن الكتابة فى التاريخ لا تتسم بالحياد أو البراءة تحول هذان العملان من التاريخ إلى الإيديولوجية أو إلى أدلجة مفرطة للتاريخ، فبعد أن يتحدث لويس عوض عن ثورة القاهرة الأولى يقارن بينهما وبين ثورة ١٩١٩ (بهذا المعنى نستطيع أن نقول فى اطمئنان أن ثورة القاهرة الأولى قد أسفرت عن انتصارات ديمقراطية محققة، وإذا أمكن أن نسمى مرسوم ٢١ ديسمبر ١٧٩٨ بتأسيس الديوان العمومى والديوان الخصوصى أو البرلمان ومجلس الوزراء دستور ٢١ ديسمبر ١٧٩٨ استطعنا أن نقول إن ثورة ١٧٩٨ على بونابرت أسفرت عن دستور سنة ١٧٩٨ بمثل ما أسفرت ثورة ١٩١٩ عن

دستور ١٩٢٣ مع الاختلاف طبعا فى الظــروف وفى أبعاد الفكرة الديمقراطية وبمثل ما أسفرت ثــورة ١٨٨٢ عــن دســتور ١٨٨٢ المجهض) (٧١) .

ومع اعتبار ثورة القاهرة الأولى ثورة شــعبية وثــورة ١٩١٩ ثورة شعبية بالمثل ينحى المؤلف من التاريخ إمكانية نجاح الثورات العسكرية، ١٨٨٢ وربما أيضا ١٩٥٢، فعام تأليف الكتاب لم يكــن يسمح للمؤلف أن يقولها صراحة خاصة وهــو محمــل بإحــساس الهزيمة (منذ أن دخلنا امتحان ٥ يونيو بدأ عديد من الكتــاب فــى استقصاء الأسباب والنتائج) (٧٢) والولاء للثــورات الــشعبية يؤيــده المسكوت عنه فى حديث لويس عوض الطويل عن "الوفد المصرى" الذى تشكل برئاسة المعلم يعقوب، والــذى كان يسعى لاستقــــلال مصر أثناء الحملة الفرنسية (٧٣) .

وما سكت عنه لويس عوض عام ١٩٦٩ أفــصح عنــه ســعيد العشماوى بكل صراحة فى عام ١٩٩٩، فهو يقارن بــين انكــسار المماليك أمام الفرنسيين وانكسار الجيوش العربية أمام إسرائيل فــى عام ١٩٤٨ ثم الانكسار العسكرى فى عام ١٩٥٦ ثم الانكسار فيما يشبه جلدا للذات فى عام ١٩٦٧ (٧٤) .

وهناك إشكالية أخرى تثيرها قراءة لــويس عــوض لأوضــاع مصر قبل الحملة الفرنسية وهى إشكالية البحث عــن الغــرب فــى

التاريخ، حيث يتم اعتبار ثورة همام تجربة فريدة للنظام الجمهورى الحديث وهى إشكالية كامنة فى أغلبية إن لم يكن كل أعمال التراثيين الجدد، فترتبط المعتزلة بالعقلانية والقرامطة بالتقدمية والاشتراكية والخوارج بالثورية.. إلخ وهذه الإشكالية فضلا عن أنها تفصل ثوبا من التراث على المقاييس الغربية فهى تربط الذات بالآخر ربطاً لا فكاك منه.

ثم هناك أيضا إشكالية تحميل النصوص بمفاهيم ودلالات أكثر مما تحتمل هذه النصوص، مثل الحديث عن الروح القومية المصرية* ونشأة الفكرة الديمقراطية [٧٥] ونشأة الوزارة الأولى والبرلمان الأول والدستور الأول.. إلخ.

وهناك ظاهرة أخرى أثارها كتاب سعيد العشماوى وهى ظاهرة التعالى إن لم يكن احتقار الناس، حيث التأكيد من خلال فقرات مطولة داخل الكتاب واستنادا إلى الجبرتى على عبارات العوام والحشرات والزعر وسفلة الأسافل.. إلخ مع رفض أى مقاومة يبديها هؤلاء فى مقاومة الغزو العسكرى.

ثانيا: الحملة الفرنسية وإجهاض محاولات التحديث الذاتية:

تنطلق هذه الرؤية من مقولات ووجهات نظر تتناقض كليا مع أطروحات الرؤية السابقة بل تتهم هذه الرؤية أصحاب الرؤية

السابقة بالدعوة إلى التغريبية حيث يرى جلال كشك في كتابه ودخلت الخيل الأزهر [٧٦] أن الرؤية الخاصة التي تعتبر الحملة الفرنسية بداية تحديث ونهوض مصر رؤية تغريبية تربط الغرب بالتحديث، أما التحديث الحقيقي فيكون في التمسك بالذات ورفض التغريب واتباع النموذج الياباني في التحديث [٧٧] ويصف جلال كشك من يتبنى هذه الرؤية بأنه من أتباع (المدرسة الاستعمارية في تفسيرها للتاريخ) [٧٨] .

ويسعى جلال كشك في البداية إلى إثبات أن مصر لم تكن مستعمرة عثمانية غارقة في ظلمات العصور الوسطى، ويعتمد في ذلك على عدة مظاهر مثل استيلاء بكوات المماليك على السلطة في مصر منذ منتصف القرن السابع عشر [٧٩] وتناقص الجزية التي كانت تدفعها مصر إلى تركيا في هذه الفترة [٨٠] بالإضافة إلى تحول الباشا التركي إلى ألعوبة في أيدي بكوات المماليك حتى وصل الأمر بالمماليك إلى قتل وطرد وتجريس الولاة [٨١] ولم يتبق من سيادة تركية على مصر إلا الولاء الاسمي والمتمثل في الدعاء للسلطان العثماني في خطبة الجمعة [٨٢] .

أما إثبات أن مصر لم تكن غارقة في ظلمات العصور الوسطى فيسعى كشك إلى إثباتها على مدى فصل كامل، فمصر لم تشهد قبل الحملة نهضة في العلوم الشرعية الدينية فقط وإنما يتم التأكيد على

وجود علوم مادية تنفى (الصورة الهزلية التى يقدمها مؤرخو الحملة وتلاميذهم عن انبهار الشيوخ بتكنولوجيا الفرنسيس) [٨٣].

حيث شهدت مصر فى تلك الفترة شيوخا يهتمون بدراسة الفلك والكيمياء والرياضيات [٨٤] ويعتمد على واقعة (مثيرة) [٨٥] أوردها الجبرتى (وهى حضور بعض طلبة الإفرنج أى مـن الأوروبيـين وربما من الفرنسيين بالذات إلى القاهرة حيث درسوا علـى الـشيخ الجبرتى الكبير وتبادلوا معه المعلومات والآلات العلمية، بل ويعتقد الجبرتى أن هذه المعلومات التى تلقوها من والده كانت الأساس فى التطبيقات أو الإنجازات التكنولوجية التى تحققت فى أوروبـا) [٨٦] وبعد ذلك تتعارض رؤية كشك طوال العمل مع رؤية لويس عوض، فالمؤسسات التى أقامها نابليون فى مصر يتم وصفها بالمؤسـسات الاستعمارية [٨٧] والديوان (ليس أكثر من جهاز لجمـع الـضرائب والغرامات) [٨٨] والحكم الفرنسى بصفة عامة حكم استعمارى يعتمد على (القانون الاستعمارى) [٨٩] أما ثورة القاهرة فقد نشبت نتيجـة للإحساس الوطنى وليس تمردا على (إصلاحات الفرنسيين) [٩٠] ولم تبدأ الثورة كذلك بسبب الضرائب (فكما يعترف هيرولـد نفـسه إن الذين قاموا بها هم العامة الذين لا يدفعون الضرائب) [٩١] ولم تكـن الأوضاع الاقتصادية السبب فى قيام الثورة فقد شهدت هذه الفتـرة انخفاضا ملحوظا فى الأسعار [٩٢].

فالثورة كما يراها جلال كشك قامت لسبب رئيسى وهو (التناقض بين الشعوب والاستعمار) [٩٣] ثم يستمر كشك فى رفض رؤية لويس عوض فعام ١٨٠٠ كما يراه كشك هو عام تحرير المرأة (من تحت الزنار) [٩٤] وبالنسبة لنابليون فهو عند كشك دجال وهناك فصل كامل بعنوان (الدجال يدخل القاهرة) [٥٦].

ويعقد نفس المؤلف فصلا كاملا لمحاكمة سليمانِ الحلبيِ ويتم وصفه بـ (شهيد الإسلام وشهيد العروبة وشهيد مصر) [٩٦] تمشيا مع إهداء الكتاب (إلى سليمان الحلبى بطل الوحدة العربية يوم كان طريقها عبر الأزهر) [٩٧] .

أما مصطفى عبد الغنى فبالإضافة إلى إهداء كتابه إلى سليمان الحلبى يزيد فى الإهداء أطفال بحر البقر وملجأ العامرية وقانا وانتفاضة الأقصى وشهداء الحملة الأمريكية [٩٨] .

وتنطلق رؤية المؤلف من المقارنة بين الحملة الفرنسية بوصفها استعمارية بحتة لا علاقة لها بالتحديث حيث (إنها لم تأت إلى مصر الغائبة) [٩٩] والحملة الأمريكية والهجوم الأمريكى المتكرر على العراق، ويتم تشبيه بوش بنابليون (مع تغير الظروف) [١٠٠] ويرى الكاتب أن الحملة الفرنسية ليست أكثر من حملة (صليبية ثامنة) [١٠١] .

وبالنسبة لمصر قبل الحملة فإن المؤلف يرى أن النصف الأخير من القرن الثامن عشر قد اشتمل على ممهدات للتطور العربى (فإننا نستطيع أن نعيد النظر فيه إلى التاريخ الفكرى لنا، لنرى أن أخصب فترات تاريخنا كانت هذه الفترة وقبل أن تأتى الحملة الغربية إلينا لقطع سياق التطور العربى) [١٠٢] .

ثم يعدد المؤلف فى عدة صفحات أسماء العلوم التى شهدت نهضة فى تلك الفترة مثل الفلك والطب والرياضيات... إلخ فهذه الفترة قد شهدت (تيار التجديد الفكرى فى مجالات أخرى كثيرة، جاوزت التصوف إلى كثير من العلوم العقلية من علم الفلك إلى الصيدلة إلى الرياضيات إلى المنطق إلى الفلسفة) [١٠٣] .

ويرى مصطفى عبد الغنى أن الغرب عنصرى وأن الحملة جاءت فى إطارين هما العولمة التى تقوم بها أمريكا الآن، والقيام بعبء الرجل الأبيض فى تمدين العالم واستمرارا للدور الفرنسى ثم الإنجليزى فيما بعد [١٠٤] وفى رأيه أن كتاب "وصف مصر" حمل رؤى استشراقية عنصرية ولا يعدو أن يكون وصفا لفرنسا وليس وصفا لمصر [١٠٥] .

ويعتبر المؤلف الحملة بداية نكبات مصر فى العصر الحديث ويربط ما بين نابليون والغرب من ناحية وإسرائيل من ناحية أخرى، إذ سمح الصراع الدولى والذى بدأه نابليون على هذه

المنطقة بزرع إسرائيل فيما بعد [١٠٦] وبالنسبة للمقاومة التى شهدتها الحملة والمتمثلة فى ثورتى القاهرة الأولى والثانية فقد كانت بسبب شراسة جنود الحملة ضد المصريين [١٠٧] ويذهب المؤلف فى نهاية كتابه إلى عدم وجود آفاق مشتركة بين مصر والعرب عامة وفرنسا وحضارة الغرب [١٠٨] .

وهناك شخصيات اتسمت بأوصاف سلبية فى هذا العمل، كل من يرى أن الحملة قد أثرت بالإيجاب فى التطور العربى يتبع المدرسة الاستشراقية فى التاريخ [١٠٩] والغريب أن يعتبر المؤلف أن لويس عوض من الذين عارضوا الحملة [١١٠] ويصف نابليون بأنه (أبو العولمة) [١١١] .

ويعتمد المؤلف فى مصادره على الجبرتى وليلى عنان فى كتابها الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير؟، ونللى حنا فى تجار القاهرة فى العصر العثمانى وبيتر جران فى الجذور الإسلامية للرأسمالية [١١٢] .

ويتبقى من هذا العرض إشارة المؤلف إلى السبب المباشر الذى جعله يتخذ هذا الموقف المعارض للحملة الفرنسية، ويتلخص هذا السبب فى الهجوم المتوالى على الأمة العربية والإسلامية، وهو الأمر الذى جعل المؤلف ينصرف عن الجدل الثقافى الدائر حول الحملة المؤيد/ المعارض وينتمى إلى الرأى العام (ومن هنا وجدتنى

أقف في معسكر واحد مع هذا العقل الجمعـى) [١١٣] فـالكـــاتب (لابد أن يكون معبرا عن الرأى العام، معارضاً للسائد والمتخلـف) [١١٤].

وتقوم رؤية ليلى عنان للحملة الفرنسية على إقصاء هذه الحملة من التاريخ الفرنسى والثقافة الفرنسية ذاتها باعتبارها آخر أسـاطير هذه الثقافة [١١٥] حيث تهدف المؤلفة إلى (دراسة أسـطورة الحملـة على مصر عند الفرنسيين أنفسهم، نشأتها، وتطورها، وما يمكن أن يفسر انتشار تلك الأسطورة بيـنهم) [١١٦] وتعتمـد المؤلفـة علـى المصادر الفرنسية فى الأغلب (ولذا كان على الدراسة التى ستبحث من خلال الكتب الفرنسية ما دار حول الحملة أثناء قيامها وبعـدها والتى لن تلجأ بطبيعة الحال إلـى الكتـب العربيـة إلا للـضرورة القصوى) [١١٧] ولا تهتم هذه الدراسة بالدرجة الأولى بإبراز أحداث الحملة بقدر ما تسعى إلى التأصيل لفكرتها فى التاريخ الفرنسى وفى الأدب وعند المؤرخين، ولذا يقسم الجزء الأول من الدراسـة إلـى فصول بهذه العناوين: الحملة فى تاريخ الثورة، نـابليون بونـابرت الجنرال والإمبراطور، أسس أسطورة الحملة ونابليون، الأسـطورة عند الأدباء، الأسطورة عند المؤرخين. وفى الجـزء الثـانى مـن الدراسة تتابع المؤلفة أحداث الحملة على مصر من خلال الاعتمـاد على المصادر الفرنسية التى أرخت للحملة وذلك استخداما لأسلوب

وشهد شاهد من أهلها والتى تجعله المؤلفة عنوانا لأحد فصولها (شاهد من أهلها المعاصرين) (١١٨) وتستمر المؤلفة فى نقد وتحليل الحملة من خلال وجهة النظر الغربية حتى تصل إلى النتيجة التالية فى نهاية كتابها (انهارت صورة الأمريكى الطيب كما انتهت أسطورة الحروب الصليبية. إن الغرب يعترف الآن أنها كانت حروبا استعمارية أكثر مما كانت حروبا دينية، كما أصبح يعترف بالفظائع التى اقترفها الصليبيون فى الأرض المقدسة واستمر جيل "تحطيم الأساطير" فأتى على أسطورة "الثورة الكبرى" ورسالتها السلمية العالمية) (١١٩) *

ويلاحظ أن المؤلفة لم تعتمد على الجبرتى، بعكس الدراسات السابقة إلا للضرورة القصوى وترجع ذلك إلى سببين:

يتمثل الأول فى أمانة الجبرتى كمؤرخ (وهى سلاح ذو حدين لأنه لم يرو إلا ما كان متأكدا منه، أو واثقا كل الثقة بمصدره ومن ثم يظن القارئ أن الثورات والمقاومة الشعبية لم تحدث إلا فى القاهرة والإسكندرية، وهما اللتان لم يتحدث الجبرتى إلا عنهما، ولا نعرف منه إلا النزر اليسير عما حدث فى الأقاليم والوجه القبلى) (١٢٠)

أما السبب الآخر فهو أن الجبرتى (مثله فى ذلك مثل غالبية المؤرخين كان ذاتيا فى كتابته: جاءت نظرته الطبقية لتؤثر بشدة

على أحكامه التى توصف أحيانا بأنها غير وطنية فتحولت عند قرائه إلى رؤية المصريين كلهم) (١٢١) .

تحمل هذه الرؤية هى الأخرى العديد من إشكاليات وظواهر وعيوب الخطاب العربى الحديث والمعاصر.

أول هذه الظواهر هى ظاهرة التخوين والتكفير التى تشيع فى الخطاب العربى المعاصر مؤخراً، وهى تنطلق من الرؤية الإسلامية/ العلمانية الانشطارية. فجلال كشك يصف لويس عوض بأنه عميل المدرسة الاستعمارية فى تفسير التاريخ، وبعد أكثر من ربع قرن يصف مصطفى عبد الغنى وجهه النظر المؤيدة للحملة الفرنسية بأنها تتبع وجهة النظر الاستشراقية، وهى عبارات واصطلاحات تدخل فى قاموس الصور الذهنية المتبادلة بين الإسلاميين والعلمانيين وتمتلئ بها كتبهم وتعبر عن النفى الفكرى للآخر من خلال استخدام أعز ما يملكه القارئ وهو الدين/ الوطن.

الظاهرة الثانية هى الإسقاط التاريخى والرغبة فى الحياة داخل ماض لن يستعاد أبدا حتى لو أدى ذلك إلى تضخيم الماضى بصورة لا تاريخية، فمصطفى عبد الغنى يعتبر الفترة السابقة على الحملة الفرنسية أخصب فترات تاريخنا، وهو رأى يجافى التاريخ ويعترض عليه أبسط قارئ لأى تأريخ تراثى تناول هذه الفترة من أمثال ابن إياس الحنفى أو عبد الرحمن الجبرتى.

أما الإشكالية الأساسية التى تثيرها هذه الأعمال فهـــى إشـــكالية الموقف من الغرب ولا أقصد الموقف العــسكرى وإنمـــا الموقــف الحضارى وموقفها من رفض الغرب واضح من خلال كتابات هذه الرؤى وإنما تشتمل هذه الرؤى على آليات فكريـــة تـــضخم هـــذه الإشكالية وتضيف إليها أبعادًا مركبة بحيث تؤدى فى النهايـــة إلـــى حالة من حالات الفصام الفكرى أو التخبط الثقافى.

ولعل أول آلية لاحظها الباحث داخل هذه الـــرؤى هـــى الولـــع الخفى والمسكوت عنه بالغرب فجلال كشك يعتمـــد كثيـــرا علـــى كريستوفر هيرولد مؤلف كتاب نابليون فى مصر، ويـــدعم وجهـــة نظره بآرائه، أما مصطفى عبد الغنى فيعتمـــد علـــى بيترجـــران- الجذور الإسلامية للرأسمالية، أما ليلى عنان فمعظم إن لم يكن كـــل مصادرها غربية وهى تنهى كتابها معلقة على الحـــروب الـــصليبية على النحو التالى (إن الغرب يعتـــرف الآن أنهـــا كانـــت حروبـــا استعمارية أكثر مما كانت حروبا دينية، كما أصبح يعترف بالفظائع التى اقترفها الصليبيون فى الأرض المقدسة واستمر جيـــل تحطـــيم الأساطير حتى أتى على أسطورة الثورة الكبرى) وهى آلية تخضع التاريخ القومى للمزاج والهوى الغربى- إن جاز هذا التعبير. فلابد أن نغير مسلمة تاريخية تعلمناها وهى أن الحملة الفرنسية قد أيقظت الشرق من سباته لأن الغرب خرج علينا يوما ليقول لنا إنه أخطأ فى

المسلمة التاريخية الأولى التى علمنا إياها وهو أسلوب فى التفكيـــر يشيع فى مجالات ثقافية متعددة لعل أبرزها التفسير العلمى للقـــرآن الكريم فيتم ربط النص الثابت بالنظريات العلمية الغربية المتغيـــرة وهنا يتم ربط التاريخ القومى وما حدث على أرض الواقـــع بهـــوى الباحثين الغربيين حيث تدعم الاتجاه لنقد الحملـــة الفرنـــسية بعـــد أطروحة بيترجران الجذور الإسلامية للرأسمالية.

أما الآلية الثانية فتطلق من مقولة مركزيـــة داخـــل الخطـــاب الفكرى للتيار الإسلامى وهى أن المسلمين علموا أوروبا فى فتـــرة من الفترات وأن عودة هذه العلوم إلينا تكون بمثابة البضاعة التـــى ردت إلينا يتضح ذلك من تعداد هذه الأعمال لأسماء العلـــوم التـــى كانت موجودة فى مصر قبل الحملة.

أما الآلية الثالثة فهى وضع نموذج غير غربى استطاع اللحـــاق بالغرب ومقارنته بالنموذج العـــربى الإســـلامي فكـــشـــك يـــرى ضرورة الاقتداء باليابان وتكثر الأعمال المتابعة لهـــذا الموضـــوع [١٢٢] مع إهدار لكل سياقات الاختلاف بين الحضارتين فاليابان مثلا لم تخض حروبا تاريخية طويلة ضد أوروبـــا كمـــا فعـــل العـــرب والمسلمون، واليابان لا تمتلك منظومة ثقافية شمولية لكـــل أوجـــه الحياة كـــالثقـــافة العربية الإسلامية، والغرب قـــد ســـمح مـــؤخرا لليابان بالصعود مع تقليم أظافرها العسكرية... إلخ [١٢٣] .

وهناك ظاهرة أخرى امتلأت بها هذه الأعمال وهى الإحساس الطاغي بالهزيمة والانكسار الحضارى والعسكرى أمام الغرب منذ قرنين وعلى اختلاف المراحل الفكرية والتاريخية المختلفة ويلخصها مصطفى عبد الغنى فى إهدائه للكتاب إلى سليمان الحلبى (فرنسا) وأطفال بحر البقر وملجأ العامرية وقانا وانتفاضة الأقصى (إسرائيل) والحملة الأمريكية (أمريكا) وفى مكان آخر يضيف الإنجليز، وهى رؤية تخضع لما يفعله ويقوم به الآخر مع سلبية تامة قد تبدو واقعية على المستوى السياسى من قبل الذات ولكنها مأساوية على المستوى الثقافى والفكرى.

وهناك ظاهرة أخرى أفرزتها رؤية مصطفى عبد الغنى للحملة الفرنسية وهى ظاهرة تردد المثقف وتغيير مواقفه وآرائه خلال فترات قصيرة فهناك رؤية أخرى لمصطفى عبد الغنى عن الحملة الفرنسية وردت فى كتابه تيارات الفكر العربى المعاصر والذى صدر فى عام ٢٠٠١ [١٢٤] فى نفس عام صدور الكتاب الأول (حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية) ومقدمته تمت كتابتها فى عام ١٩٩٩ [١٢٥] أى بعد عام من صدور الكتاب الأول على شكل مقالات فى الأهرام.

والكتاب الجديد يتناقض مع الكتاب الأول فى عدة مواضع، فالحملة الفرنسية أصبحت (صدمة التغيير الحضارى التى عرفها

المصريون على دوى مدافع بونابرت والتى كانت كافية لا لبحث فكرة المواجهة وإنما لنشأة اضطراب لازم بنية المجتمع العربى طيلة تطوره حتى اليوم، ومهما يكن من آثار الحملة على الشرق فقد خلقت بالنسبة إلى الدور الحضارى أثرا ما مثل عمقا لا يمكن تجاهله لمن يحاول رصد حركة الفكر المصرى فى هذه الحقبة) (١٢٦) وهو ما يناقض الرؤية السابقة والتى ترى أن الحملة لا علاقة لها بالتحديث ولم تقم بأى دور حضارى فى وقتها.

وكما اعتمد هو وكشك على الجبرتى فى إيراد أسماء العلوم التى عرفتها مصر قبل الحملة يعتمد أيضا على الجبرتى* لإثبات أن مصر كانت خالية من أى علم مادى قبل الحملة (والعودة أكثر إلى الوراء نرى أن ذلك كان أكثر وضوحا فى العصريين الأيوبى والمملوكى (١١٩٦-١٥١٧)- يقصد التراجع العلمى والفكرى- ويمضى فيه العصر العثمانى ويصل أقصاه عند وصول بونابرت إلى أرض وادى النيل عام ١٧٩٨، فإذا بنا أمام فقهاء أو علماء لا يعرفون أى شئ- كما سنرى- من "العلوم الرياضية، فلا يرونها إلا على أنها من فروض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين")
(١٢٧) *

إذن فمصر كانت هنا غائبة بعكس الرؤية الأولى، ويمتلىء الكتاب وفى أجزاء متفرقة منه بدور الحملة فى إثارة الوعى

المصرى والعربى بأهمية التقدم والتحضر وليست بداية لنكبات مصر كلها كما كان يرى من قبل.

كيف يكن تفسير هذا التناقض...؟ هل يمكن تفسيره من خلال ظاهرة تردد المثقف بين التيارات الثقافية المختلفة فنرى الإسلامى يتحول إلى المعسكر العلمانى أو العكس ولكن هذه العملية تتم خلال فترة زمنية طويلة (طارق البشرى- محمد عمارة- مصطفى محمود.. إلخ) أما أن يتم هذا التبدل فى خلال عام أو عامين فهى ظاهرة لا يمكن ردها إلى تغيير المواقع الفكرية وإنما يمكن ردها فى ظن الباحث إلى السبب الذى دفع مصطفى عبد الغنى إلى تأليف مقالاته التى جمعها فى كتاب (حقيقة الغرب) وهو (ومن هنا وجدتنى أقف فى معسكر واحد مع هذا العقل الجمعى) فالكاتب (لابد أن يكون معبرا عن الرأى العام معارضا للسائد والمتخلف)، السبب يكمن فى طبيعة الجمهور المتلقى فجمهور الأهرام ومكتبة الأسرة- حيث صدر كتاب حقيقة الغرب- فى معظمه لا يمثل النخبة المثقفة مثل جمهور كتاب تيارات الفكر العربى المعاصر الصادر عن المجلس الأعلى للثقافة، وما كان يمكن فى ظن الباحث أن يكتب سعيد العشماوى كتاباته عن الأوباش والعوام وسفلة الأسافل فى الأهرام وهى ظاهرة تعبر عن الخوف النخبوى من الناس*.

ثالثا: الرؤية الوسط بين النقيضين (الرؤية التوفيقية للحملة الفرنسية)

بخلاف وجهتى النظر المؤيدة/ المعارضة للحملة توجد وجهه نظر ثالثة ترى فى الحملة غزوا عسكريا ولكنها لا ترفض الوجه الحضارى للحملة ولا ترفض الثقافة الفرنسية بصفة خاصة أو الغربية بصفة عامة. ويعبر عن وجهه النظر هذه كتاب نعم لفولتير لا لبونابرت لأحمد عبد المعطى حجازى والذى كان هو الآخر عبارة عن مجموعة مقالات تم جمعها ونشرها فى كتاب صدر فى عام ١٩٩٨ [١٢٨].

تنطلق وجهة نظر عبد المعطى حجازى من اعتبار فرنسا (حقيقة ثقافية) [١٢٩] وتتبع هذه الحقيقة من اعتماد حركة الاستنارة المصرية على تراث التنوير الفرنسى ابتداء من الطهطاوى والذى كان (أول مثقف عربى يقرأ فولتير ويتحدث عنه) [١٣٠] مرورا بطه حسين ومنهجه فى كتابة التاريخ والذى تأثر فيه بفولتير وانتهاء بأثر فولتير فى العديد من الأسماء الثقافية فى تاريخنا المعاصر [١٣١] ويرى المؤلف أن العرب يستطيعون كسب الفرنسيين إلى صفوفهم وخاصة فى ظل الصراع الثقافى الفرنسى الأمريكى الدائر حاليا [١٣٢].

ويصف المؤلف الاتجاه الإسلامى الـرافض للحملـة بالاتجـاه (الساذج) [١٣٣] والذى لا يعرف التاريخ ويخلط بين الفترات الزمنية (ومع سذاجة هذا الاتجاه وغفلته وخلطه المعيب بين الإمبراطوريات المقدسة والدول القومية وبين الحروب الدينية والحروب الاستعمارية وبين الجهاد فى سبيل النفط والجهاد فى سبيل المسيح، أقـول مـع سذاجة هذا الاتجاه وخلطه بين الأزمنة والدول والـنظم الـسياسية والأهداف المختلفة، فهو اتجاه رائج يستغل عند عامة الناس نفورهم الطبيعى من الغرب الاستعمارى ويحول هذا النفـور إلـى عـداء مستحكم لكل ما هو أجنبى) [١٣٤] .

وبالنسبة للاتجاه الوطنى الذى يرفض الحملة لأسـباب وطنيـة فيرى المؤلف أن أصحابه يتمسكون بالعناد الطفولى (وهناك آخرون يقاومون الاحتفال هم أيضا لأسباب عثمانلية كما يفعل الأولون ولكن لأنهم وطنيون مصريون فبوسعنا أن نفهم لغتهم وإن لم نتفق معهـم كل الاتفاق. هؤلاء السادة لا يرون فى حملة بونـابرت إلا وجههـا العسكرى وهذا جحود لا تفرضه الوطنية وعناد طفـولى لا ينفـى الحقيقة ولا يغيرها) [١٣٥] .

وعلى هذا الأساس يقسم المؤلف وجهات النظر حـول الحملـة الفرنسية إلى ثلاثة اتجاهات:

١-اتجاه وطنى متشدد لا يرى فى حملة بونابرت إلا غزوة استعمارية.

٢-واتجاه معتدل لا ينكر أن الحملة الفرنسية كانت غزوة استعمارية، لكنه يرى مع هذا أنها ساعدت مصر على اكتشاف نفسها واكتشاف أوروبا .

٣-واتجاه آخر لا نملك إلا أن نصفه بالسذاجة مع علمنا بأنه ضالع فى الجريمة والغ فى الدماء [١٣٦]

أما بونابرت فيرى المؤلف أنه اعتمد فى منشوره على الحجج الدينية ليقنع المصريين بحملته على أساس (أن المصريين مازالوا يقيمون علاقاتهم مع كل شئ على أساس العقيدة الدينية كما كان الأمر فى العالم كله طوال العصور الوسطى، أما المصالح القومية التى أصبحت أساسا لكل شئ فى العصور الحديثة فالمصريون لا يولونها أى اعتبار) [١٣٧].

ووجهة نظر المؤلف تتلخص فى أن (الحملة الفرنسية لم تكن غزوة استعمارية فحسب بل كانت بها جوانبها الثقافية والحضارية التى بدأت منها نهضتنا الحديثة فى أوائل القرن الماضى وهذه حقيقة أخرى لا تحتاج إلى جدل كثير أو قليل. كان يكفى إذن أن نعلن على الناس أننا نحتفل بالنهضة المصرية الحديثة وبعلاقاتنا الثقافية مع فرنسا، وبالأخوة التى تجمع بيننا وبين جميع شعوب الأرض ولا

نحتفل طبعا بالغزوة فلا يبقى سبب واحد يبرر الهجوم على الاحتفال) [١٣٨].

تحاول هذه الرؤية إذن أن تجمع ما بين الحسنيين رفض الغزو الاستعمارى مع قبول الحضارة الوافدة ولكنها فى سبيل تأكيد هذه الفكرة تنفى كل وجهه نظر مخالفة لها، فالتيار الإسلامى يتصف بالسذاجة والتيار الوطنى يتمسك بآرائه فيما يشبه العناد الطفولى وتضع خلافا جذريا بينها وبين الرؤية الإسلامية مما يستحيل معه الحوار معها. على عكس الرؤية الوطنية التى يمكن التفاهم معها وهى رؤية تشطر الوطن إلى شطرين توفيقى- وطنى/ إسلامى وتشطر الغرب إلى شطرين فرنسا/ أمريكا مما يجعلها تقع فى ثنائيات الخطاب التوفيقى التقليدى والذى تحدث عنه الكثيرون وتعتبر امتدادا تاريخيا لرؤية ثقافية قادمة من عصر ما قبل ثورة ١٩٥٢ عندما تجادل طه حسين والعقاد حول الثقافتين الفرنسية والإنجليزية.

المحور الثالث: الحملة الفرنسية كما يراها الآخر

ترجع أهمية دراسة بيتر جران الجذور الإسلامية للرأسمالية [١٣٩] فى اعتماد التيار المعارض للحملة الفرنسية عليها، بالإضافة إلى صدورها عن مفكر أمريكى يسارى. وقد أثارت الجدل فور

صـــدورها فـــــى عام ١٩٧٩ سواء فى العالم العربـــى أو فـــى الدوائر الغربية المهتمة بهذا الموضوع [١٤٠] .

يرفض بيتر جران منذ البداية اتخاذ عام ١٧٩٨ بداية للتحـــديث والنهوض فى مصر [١٤١] * والدراســـة تعتمـــد علــــى أطـــروحتين أساسيتين:

الأولى: أطروحة اقتصادية ترى أن الهجوم الفرنسى على مصر قد أضر بالطبقات الوسطى المصرية [١٤٢] .

الثانية: أطروحة ثقافية تركز على الإحياء الصوفى فى منتصف القرن الثامن عشر كما أنها تتبع سيرة الشيخ حسن العطار كرمـــز للنهضة الثقافية التى شهدتها مصر قبل مجىء الحملة إليها.

بالنسبة للأطروحة الأولى، يبدأ بيترجـــران تاريخـــه للنهـــضة المصرية فى القرن الثامن عشر بتولى على بك الكبير مشيخة البلـــد فى عام ١٧٦٠ [١٤٣] وهى الفترة التى أصبح فيها المماليك من القوة بحيث طمحوا إلى الاستقلال بمصر عن السلطة العثمانية من ناحية، وشكلوا نخبة حاكمة قوية من ناحية أخرى، فالطبقة العليا المـــصرية تشكلت آنذاك من المماليك والموظفين الرســـميين وبعـــض أغنيـــاء المصريين [١٤٤] .

ثم يرصد المؤلف ملامح الطبقة الوسطى والتى تـــشكلت مـــن التجار المصريين والعلماء ونخبة الحرفيين [١٤٥] .

أما الطبقة الدنيا فقد تشكلت أساساً من صغار الحرفيين المتجولين أو أصحاب المهن نصف المشروعة [١٤٦] .

والمؤلف يرى أن حملة نابليون قد أضرت بتجارة العلماء والتجار من الطبقة الوسطى وخاصة أن نابليون قد حاول أن يتحالف مع هذه الطبقة من خلال قانون التسجيل، وهو القانون الذى اكتسب به نابليون نحو ثلثى أراضى الدولة للطبقتين العليا والوسطى بعد أن كانت الأرض حكراً على المماليك وقلة من المصريين [١٤٧] .

ولكن سياسات نابليون من خلال الضرائب التى فرضها على الممتلكات بمدينة القاهرة بعد هزيمته فى سوريا قد أضرت كثيراً بمصالح الطبقة الوسطى وأصابتها فى مقتل [١٤٨] .

وهنا يبرز المؤلف دور شرائح الطبقة الوسطى وتحالفها مع نابليون حتى أنها لم تقم بثورتىّ القاهرة الأولى والثانية إلا نتيجة للضرائب المتدرجة ولسلوك الكثير من جنود الحملة الفرنسية المنافى للتقاليد الإسلامية فى رمضان [١٤٩]، وعلى الرغم من إبراز المؤلف لدور الطبقة الوسطى ودورها فى التجارة وفى الثورتين فإنه يؤكد فى مكان آخر أن بنية التجارة فى مصر كانت محدودة [١٥٠] وأن الشرائح المصرية من الطبقتين العليا والوسطى لم تشكل طبقة تكون قادرة على إسقاط النظام المملوكى فى مصر قبل الحملة الفرنسية (ورغم ذلك بقى النظام حتى العقد الأول من القرن التاسع

عشر، فلم تكن هناك طبقة صاعدة من داخل مصر تعمل على إسقاط هذا النظام) [١٥١] ويرى أن تقدم مصر فى عهد محمد على يرجـــع إلى (أنه نفسه كف عن أن يكون مملوكاً) [١٥٢] .

يرسم بيتر جران صورة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى مصر قبل وأثناء الحملة الفرنسية قد تبدو متناقضة فى مواقع كثيرة من هذا العمل، فالصورة تقوم فى الأساس على افتراض وجود طبقة وسطى تتكون من شرائح وتمارس التجارة ولها مصالح اقتــصادية واجتماعية وقد أضيرت هذه الطبقة نتيجة للحملة الفرنــسية علـــى مصر، ولكنه يناقض هذه المقولات فى مواقـــع أخـــرى فالتغلغـــل الأوروبى التجارى كان موجوداً فى مصر وبصورة ضـــخمة قبـــل قدوم الحملة [١٥٣] وابتداءً من عام ١٧٩٠ تزايدت الصراعات بـــين المماليك كما تراكمت السلع الكمالية الأوروبية فى السوق المصرية. وقبل هذا التاريخ شكل التجار الأجانب فى مصر طبقة استطاعت أن تؤثر فى السوق المصرية. الداخلية وتعجل بتدهور الطبقة الوسطى المصرية [١٥٤] – قبل مقدم الحملة، ولعل تحيز المماليـــك للتجـــار الإنجليز على حساب التجار الفرنسيين كان من الأسباب المباشـــرة للحملة [١٥٥] وعلى الرغم من تأكيد المؤلف بعد كل ذلك على وجود طبقة وسطى مصرية فإنها كانت من الضعف حتى فى حال تحالفها مع الطبقة العليا على إسقاط النظام المملوكى، أما نابليون فهو أحياناً

يضر بسياساته الطبقة الوسطى وأحياناً يحاول إنعاشها (لقد حاول نابليون عام ١٧٩٨ القيام ببعض الإصلاحات ونجح فى تسجيل الملكية الخاصة ولكن ما أن رحل نابليون حتى عادت الفوضى) [١٥٦].

وبالإضافة إلى هذه الصورة التى قد تبدو متناقضة فإن المؤلف يرصد الظروف الاقتصادية المصرية وملامح الطبقات المختلفة فى جزء يقع فى حوالى ثلاثين صفحة من كتابه والذى يبلغ حجمه أكثر من عشرة أضعاف هذا الرقم فى الترجمة العربية [١٥٧].

أما الأطروحة الثانية فى هذه الدراسة فهى أطروحة ثقافية تقوم على رصد المؤلف للصحوة الثقافية والدينية التى شهدتها مصر فى القرن الثامن عشر. يرى المؤلف أن (الإسلام فى مصر يعنى الصوفية) [١٥٨] وبالتالى فأى إحياء صوفى يتم فى هذه المرحلة هو صحوة ثقافية. وعلى مدى فصل كامل يرصد المؤلف علاقة الطبقات المصرية المختلفة بالطرق الصوفية وإحياء هذه الطرق وخاصة على أيدى أفراد من الطبقة الوسطى كدليل على النهضة الدينية والثقافية التى قادتها الطبقة الوسطى آنذاك [١٥٩].

أما مظاهر هذه النهضة فتتمثل فى الطرق الصوفية بشطحاتها وكثرة الدراويش فيها واعتمادها على الرموز والتأويلات الدينية المغرقة فى (الإشراق والجلاء) [١٦٠] و(العرفان) [١٦١] كما يعتبر أن

زيارة الأضرحة فى مصر هى البؤرة الثقافية فى النشاط الثقافى آنذاك (وكانت زيارة الأضرحة فى مصر تمثل البؤرة الرئيسية فى النشاط الفكرى والروحى خلال القرن الثامن عشر وتدور الكتابات عن الزيارات حول الفضائل الخاصة أو المعجزات التى تغرى إلى زيارة أضرحة معينة) [١٦٢] .

وعلى مدى فصل كامل يرصد المؤلف الصحوة الثقافية خلال تلك الفترة فى الأدب واللغة والتاريخ [١٦٣] .

وانطلاقاً من رصده للمجالس التى كان يعقدها بعض الأثرياء يربط المؤلف بين وجود هذه المجالس ورغبة الطبقتين العليا والوسطى التجديد فى مجالات الأدب والحديث النبوى واللغة والتاريخ، ويطلق المؤلف على هذه المجالس وصف (المؤسسات الثقافية الحديثة فى مصر) [١٦٤] .

كما يرصد المؤلف الأعمال الفكرية التى شهدتها هذه الفترة والتى تعبر عن النهوض الثقافى والتى تتمثل فى (الحواشى والشروح والتقارير... إلخ فقد جاءت كتابات العلماء على هذه الصورة خلال الفترة من القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر) [١٦٥] .

ويؤرخ المؤلف لنهاية الصحوة الثقافية الدينية آنذاك بعام ١٧٩٠ [١٦٦] أى قبل مجىء الحملة الفرنسية أيضاً.

أما بقية الدراسة فتدور حول الشيخ حسن العطار وإسهامه في النهضة المصرية منذ قيامه بتأليف أول كتاب له في عام ١٧٨٦ في النحو وحتى وفاته في عام ١٨٣٥ (١٦٧).

هذه الرؤية بخلاف ما يبدو بداخلها من تناقض أحياناً إلا أنها في الأساس تنطلق من رؤية الشرق كسحر أخاذ وكعوالم مغايرة للغرب، تقترب من الرؤى الاستشراقية التقليدية حينما ترى الإسلام هو التصوف ولا تتوقف أمام التصوف الفلسفي بقدر ما تتوقف أمام الدراويش والأضرحة والأولياء، وهو الأمر الذي رفضته الحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي أثناء وبعد حملة نابليون. وسارت بعد ذلك الحركة الإصلاحية على يد جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده... إلخ، وعلى هذا الدرب استمر رفض التصوف الشعبي على يد الحركة الإسلامية والتيارات العلمانية والليبرالية بعد ذلك وحتى المشاريع الفكرية العربية المعاصرة أو من يطلق عليهم أحياناً "التراثيين الجدد" أمثال الجابري وحسن حنفي وأركون.... إلخ تمتلىء أعمالهم بنقد هذا النوع من التصوف والذي أدى إلى إشاعة الخرافة والجهل في المجتمعات العربية والإسلامية وأخذ أطروحة بيتر جران في هذا الموضوع يعتبر إهداراً لجزء كبير من الخطاب النهضوي العربي المعاصر.

أما الإشكالية الأخرى التى يثيرها هذا العمل فهى تبنى الـبعض له كدليل على أن حملة نابليون أجهضت نهضة برجوازية شـهدتها مصر فى نهاية القرن الثامن عشر وفقاً لأسلوب وشهد شـاهد مـن أهلها وربطاً للخطاب الثقافى العربى بتقلبات الخطاب الغربى.

المحور الرابع: الأنـا تقـدم نفسها للآخر:

هل يمكن الخروج من التبعية الثقافية للغرب؟!

تعتبر نيللى حنا من الباحثات المهتمات بتاريخ مـصر خـلال الحقبة العثمانية عبر العديد من الكتب والدراسات والتى ترجم منهـا حتى الآن "بيوت القاهرة فى العصر العثمانى" و"تجار القاهرة فـى العصر العثمانى- سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار" و"ثقافة الطبقـة الوسطى فى مصر العثمانية (ق ١٦م- ق ١٨م)" (١٦٨) *

ويرى رؤوف عباس أن مشروع نيللى حنا يقوم علـى دحـض الأفكار التى روجتها مدرسة الاستشراق التقليدى عن تاريخنا القومى ومجتمعاتنا، والتى ترى أن بلادنا كانت راكدة متخلفة حتـى جـاء الغرب فى مطلع القرن التاسع عشر لينقذنا مما نحن فيه (١٦٩) .

ويقوم الكتاب على دراسة ثقافة الطبقة الوسـطى فـى مـصر العثمانية خلال الفترة الممتدة من القرن السادس عشر وحتى القـرن

الثامن عشر. وتؤكد الباحثة فى مواضع مختلفة من دراستها انطلاقها من عدة رؤى:

١-أن دراسة الطبقة الوسطى المصرية خلال تلك الحقبة يؤكد هزل الحديث عن التدهور الثقافى الذى كان يعيشه المجتمع المصرى آنذاك (١٧٠) .

٢-أن إثبات وجود طبقة وسطى منتعشة قبل مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر ينقض الرؤية التقليدية والتى تربط الحداثة والتحديث بالحملة الفرنسية وعصر محمد على (١٧١) .

٣-تعتمد الدراسة على فكرة المركز والأطراف وتتبنى مقولة بيترجران فى كتابه ما بعد المركزية الأوروبية، والتى يذهب فيها إلى دراسة تاريخ العالم باعتباره تاريخاً اجتماعياً للعالم وليس تاريخاً للمركزية الأوروبية، وبالتالى تطبق هذه الرؤية فى دراستها باعتبار أن الصعود الغربى الذى شهدته حقبة الدراسة لا يؤدى بالضرورة إلى تدهور المراكز الثقافية القديمة (فإنه عندما تصبح بعض المراكز الجديدة بالغة التأثير فلا يعنى ذلك بالضرورة أن المراكز القديمة قضت نحبها أو أنها أصبحت عاجزة عن العطاء) (١٧٢) *.

والمركز فى هذه الدراسة يبدأ من رفض المقولات التقليدية عن الصعود الغربى خلال فترة الدراسة وما مثله ذلك من اعتبار الغرب مركزاً ثقافياً يقابله طرف شرقى متخلف، ثم هناك المركز العثمانى

وما يقابله من تصور العالم العربى كأطراف تابعة له، وتحاول الباحثة الخروج على الفكرة الاستشراقية التقليدية ولكن عبر تأييدها، فالفكرة الاستشراقية التقليدية تقوم على دراسة العالم العثمانى ككل وكطرف هامشى ومتخلف. وفى مواضع عدة من الدراسة تؤكد الباحثة على وجود ثقافة طرفية عربية متطورة عن الثقافة العثمانية، مما دفع أحد المعلقين على الكتاب إلى التساؤل (إلى أى درجة كانت مصر عثمانية أثناء الفترة العثمانية؟ أو بعبارة أخرى ماذا كان عثمانياً فى مصر العثمانية. إن هذا الكتاب يقول فى أكثر من موضع وبأكثر من طريقة أن إسطانبول لم يكن لها دور فى تشكيل ثقافة الولايات التابعة لها) وهو ما يستدعى التصور المقابل للطرح السابق (مدى تأثير هذه الثقافة- يقصد ثقافة الطبقة الوسطى- فى محيطها المباشر ثم الأوسع، ومن الممكن أن نتخيل تأثير الطبقة الوسطى فى إسطانبول بمثيلاتها فى القاهرة وحلب ودمشق) [١٧٣] .

وقد حاولت الباحثة الخروج من الدائرة العثمانية لأن (الدراسات التى تعنى بتاريخ مصر الاجتماعى استناداً إلى مصادر إسطانبول التى تمثل وثائق الدولة فى معظمها وهى دراسات كتبت لغرض معين واضح تماماً، تقدم صورة ناقصة أو مشوهة للمجتمع المصرى فى ذلك العصر) [١٧٤] .

ويلاحظ الباحث على هذه الدراسة:

١-على الرغم من الجهد المبذول فـــى دراســة حالـــة مـــصر الاقتصادية خلال حقبة الدراسة فإنها تؤكد فـــى مواضـــع عـــدة أن الطبقة الوسطى المصرية التى نشأت نتيجة لانتعاش التجارة آنـــذاك لم تستطع أن تغير من شكل السلطة المصرية أو أن تدخل فيها، كل ما استطاعت عمله هو إقامة مصالح تجارية مشتركة مـــع الطبقـــة الحاكمة [١٧٥] .

٢-تتوقف الدراسة عند العقود الأولى من القرن الثـــامن عـــشر باعتبارها فترة شهدت تدهوراً فى الاقتصاد المصرى بـــسبب قلـــة الطلب على المنتجات المحلية [١٧٦]، و(حول منتصف القرن الثـــامن عشر كان للمؤثرات السلبية على الاقتصاد انعكاســـها علـــى ثقافـــة الطبقة الوسطى- عندما جرت الرياح بما لا تشتهى السفن- فـــأثرت سلبياً على القدرات الحركية لتلك الثقافة) [١٧٧] أى إن حملة نـــابليون لا علاقة لها بالجذر الاقتصادى للطبقة الوسطى أو بثقافتها، ويلاحظ أن هيمنة المركز الاقتصادية هى التى جاءت بآثار عكـــسية علـــى الاقتصاد الطرفى وثقافة طبقته الوسطى، فالـــسكر المحلـــى نافـــسه السكر المنتج فى الأمريكتين وكذلك المنسوجات وهما من الصادرات الرئيسية [١٧٨] * .

٣-تبرر الباحثة اتجاهها إلى دراسة الطبقة الوسطى وثقافتها وعلاقتها بالثقافة الشعبية عبر العديد من المبررات ولكن ما استوقف الباحث إغراقها فى محاولة رسم طبقة وسطى على النمط الأوروبى (وعلى سبيل المثال تتحرك دراسات الثقافة الأوروبية من ثقافة عظماء الرجال مثل فلاسفة القرن الثامن عشر فى عصر التنوير الفرنسى، وتجاوزت حدود المعرفة والعلم فى المؤسسات الأكاديمية. وتتجه هذه الدراسات إلى استكشاف القوى الاجتماعية الأخرى وعلاقتها بالقراءة والكتابة والمعرفة والكتب) (١٧٩) .

وفى مجال القراءة ترى الباحثة أن انتشار القراءة والتعليم فى مصر آنذاك يؤدى إلى تشكيل طبقة وسطى على النمط الأوروبى (وعلى سبيل المثال يذهب المؤرخ الإيطالى كارلو شيبورا إلى وجود علاقة وثيقة بين معرفة القراءة والكتابة والرأسمالية التجارية والحياة الحضرية فى جنوبى أوروبا فى العصور الوسطى) (١٨٠) .

والغرب هو النموذج الأوحد للحوار سواء عبر قياس تقدمنا الغابر على تخلفه، أو تقدمه على تخلفنا، ففى الفترة التى كان التعليم ينتشر فيها فى العالم الإسلامى كانت البابوية الأوروبية تقف ضد التعليم (١٨١) .

وعلى مدى فصل كامل - الفصل الثالث من الكتاب- ترصد الباحثة تأثير الكتب وانتشارها على تشكيل ثقافة الطبقة الوسطى

عبر رصدها لكتالوجات المخطوطات العربية عن الكتــب [١٨٢] أو قوائم التركات [١٨٣] والتى تضمنت قوائم بكتــب تركهــا أصــحابها للورثة أو انتشار الورق [١٨٤] أو المكتبــات العامــة [١٨٥] ويلاحــظ إعطاء الباحثة أهمية للكتب الصوفية فى أماكن عدة مــن الدراســة، بالإضافة إلى انتشار الثقافة السمعية التى تنتج عن قراءة فرد لكتاب بصوت جهورى فى محيط من الأفراد [١٨٦] .

والسؤال: إلى أى مدى تستطيع الثقافة السمعية تــشكيل ثقافــة ناهضة؟ وهو ما أدى إلى نشأة مجالس ثقافية. وتتساءل الباحثة فــى إطار الحوار مع الغرب (هل ينظر المؤرخون إلى هذه المجالس فى سياق التاريخ الثقافى على نحو ما يُنظر إليها فى التــاريخ الثقــافى لفرنسا وألمانيا، باعتباره مكاناً لتبادل الآراء، ومنبــراً للجــدل، أم نعتبرها نوعاً من وسائل التسلية؟) [١٨٧] .

٤-بعد أن تقيم المؤلفة بناءً للطبقة الوسطى المصرية يتشكل من الانتعاش التجارى وتعلم القراءة والكتابة وانتشار الثقافة عبر الكتب والثقافة السمعية، تقيم بناءً قيمياً لهذه الطبقة يتماهى مع قيم الطبقــة الوسطى الأوروبية وتصورها لمفردات الحياة، بدءًا مــن اقتــراب إمكانية قيام قيادة من هذه الطبقة (قيادة قريبة من مفهــوم "القيــادة العضوية" الذى صاغه أنطونيو جرامشى) [١٨٨] وانتهــاءً بــصياغة

ثقافة شبه علمانية تهتم بالمال والعادى واليومى [١٨٩] وموقف هذه الطبقة من المرأة والثقافة الشعبية واللغة الدارجة [١٩٠] .

والغريب أن هذه السمات والتى تؤكد المؤلفة أنها كانت بحثاً من قبل أفراد الطبقة الوسطى عن الحداثة الأوروبية لا تتماهى مع الطبقة الوسطى الأوروبية آنذاك والتى أنتجت التنوير والعقلانية على نحو ما حدث فى القرون المماثلة لحقبة الدراسة فى أوروبا، وإنما هى سمات تقترب كثيراً من سمات الطبقة الوسطى المصرية المنهارة حالياً بفعل هيمنة المركز الأمريكى هذه المرة، ولا تقترب حتى من صعود هذه الطبقة الوسطى فى فترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية عندما كان الجاحظ يؤلف فى حرية الإرادة الإنسانية وعلم الكلام بمشكلاته العويصة ويكتب عن الجوارى والقيان والغلمان، فما مدى إمكانية شريحة من الناس تهتم بالمال والأشياء العادية وتتلقى ثقافة دينية محافظة وصوفية وتهتم باللغة الدارجة ومكائد النساء- بتعبير المؤلفة-... إلخ، ما مدى قدرة هؤلاء الناس على النهوض؟ وما مدى اتفاقهم أو اختلافهم عن الطبقة الوسطى الأوروبية، وهو سؤال سكت عنه النص تماماً؟

٥-وهناك العديد من الأفكار التى تؤيدها المؤلفة أو تعارضها، فهى تؤكد على وجود ثقافة علمية، وتعتمد على الجبرتى فى ذلك [١٩١]، لأنه يؤكد على وجود ثقافة علمية بما يخدم أهداف الباحثة، ثم

تنتقده لموقفه من ثورات العوام والزعر والحرافيش [١٩٢]، كذلك هناك نقد للفكرة الاستشراقية التقليدية عن سيطرة الاستبداد الشرقى [١٩٣] على مجتمعاتنا أو سلبية الشرق [١٩٤]، وعلى الرغم من رصد المؤلفة لأساليب احتجاجية عديدة قامت بها الرعية للاعتراض على السلطة الحاكمة فإنها أساليب لم تفض إلى نتائج جذرية* وتؤكد الباحثة فى موضع بالدراسة على أن الممارسات الاقتصادية للسلطة الحاكمة أدت كثيراً إلى تدهور الطبقة الوسطى (وعندما يتحول تركيز اقتصاد الطبقة الحاكمة إلى مصالحها الريفية على حساب مصالحها الحضرية، يقل الاهتمام بالحفاظ على مصالح تلك الطبقة -تقصد الوسطى- وحمايتها ومن ثم ينتكس حالها) [١٩٥].

وتؤكد المؤلفة على دور الكتاتيب والمساجد فى تطوير ثقافة متعلمة فى (مواجهة ثقافة العلماء، ثقافة تُنسب إليهم ولا تفرض عليهم؟) [١٩٦] وهى تعطى أهمية قصوى للكُتّاب فى صياغة ثقافة الطبقة الوسطى [١٩٧] بما يشعر القارىء بخطأ الآراء الناقدة للكتاتيب ونظامها*.

٦-تنطلق هذه الدراسة كذلك من نقد المركزية الأوروبية، ولكنها فى سعيها إلى ذلك تفتت الأطراف، فالهامش هنا لم يعد الشرق أو حتى الجنوب أو الثقافة العربية الإسلامية، بل يتم تفجير الهامش من داخله إلى مركز وأطراف، وأحياناً إلى ثقافة عاصمة

وأقاليم أو حضر وريف، على نحو ما تذكر المؤلفة في مواضع عديدة من دراستها، وبالتالي هي تسعى إلى تفتيت المفتت أصلاً وإضعاف العاجز بطبعه، وهي رؤية قد تصلح في حالة القوى والمتكامل والمهيمن فتصلح لتفتيت المركز الأوروبي من داخله، ولكنها لا تصلح في حالتنا حيث التشظي والطائفية وغياب النسق الثقافي والرؤى الحضارية المتكاملة وربما تأتي بتأثير ما بعد الحداثة الغربية، والتي تعلي من قيم اللامعقول والهوامش والأطراف. ولكن في ظل اتجاهات راسخة وقوية من عقلانية ونسقية وأفكار كبرى يتم التمرد عليها من داخلها. أما نحن فكيف نعلي من قيم الدروشة الصوفية واللغة الدارجة والاهتمام باليومي؟ ونحن نعاني من هيمنة هذه القيم أصلاً، وهل لأننا فشلنا في العقلنة والعلمنة والحداثة نعود إلى قيم ما قبل حداثية بدعوى تشابهها مع ما بعد الحداثة الأوروبية لإثبات أننا لم نكن يوماً متخلفين! أم أنها مجرد التبعية المطلقة للغرب الذي قال لنا يوماً أننا كنا متخلفين وأخذنا مقولته بتسليم واعتبرنا الحملة الفرنسية بداية التاريخ وما قبلها من فترة عثمانية لا تعدو أن تكون جاهلية قروسطية، ثم يأتي الغرب ليخبرنا أننا لم نكن يوماً على هذه الدرجة من الجهالة فنصدقه ونلعن الحملة الفرنسية *، ثم ما الضرر في الاعتراف بتخلفنا آنذاك أو بتخلفنا المعاصر؟ أم أن المسألة تتعلق بالذات

العربية الجريحة التى فشلت فى تحقيق نهضتها وتعانى من التفــوق الغربى المستمر فى أشكاله المتعددة.

٧-تحاول هذه الدراسة بناءً على ذلك دفع تهمة التخلف والجهل بشتى السبل، ولذلك فهى تقيم حاجزاً فاصــلاً مــا بــين العثمــانى والعربى أو المصرى انطلاقا من تركيز الاستشراق التقليدى علــى التاريخ العثمانى كتاريخ عام للمسلمين، وعلى اعتبار أن لفظ تركى يساوى لفظ مسلم فى المخيلة الغربية بما يرافق لفظ التركــى مــن العديد من الأوصاف والسمات السلبية- لعل آخرها أطروحة برنارد لويس فى كتابه "أين الخطأ؟"- ومع ذلك فالهجوم الأمريكى الأخيــر على الأمة الإسلامية جاء على تلك الولايات العربية وأستثنى تركيا والتى لها علاقات شبه ممتازة مع الولايات المتحدة، وهو ما يؤكــد أن تحسين صورة العرب والمسلمين لا علاقــة لهــا بالممارســات الأمريكية الاقتصادية ذات الأقنعة الثقافية. ولن تفلح هذه المحاولات فى تحسين صورة تعرفها دوائر الاستشراق الغربى بمراكزه البحثية ومؤسساته أكثر مما يعرفها المسلمون أنفسهم [١٩٨] .

القسم الثاني
الحملة الأمريكية: الرؤية التشاؤمية للتاريخ العربى المعاصر

تمهـيـــد:

يصف الجبرتى سنة ثلاثة عشرة ومائتين وألف علـــى النحـــو التالى * (وهى أول سنى الملاحم العظيمـــة والحـــوادث الجـسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتضاعف الـــشرور، وتـــرادف الأمور، وتوالى المحن، واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال، واختلاف الأحـــوال، وفـــساد التـــدبير، وحصول التدمير، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب (وما كان ربك مهلك القرى بُظلم وأهلها مُصلحوُن) (١٩٩) .

يبدو للمتابع للخطاب العربى أن وصف الجبرتى لعـــام ١٧٩٨ بالأوصاف السابقة ينطبق إلى حد كبير على الغزو الأمريكى للعراق والذى انتهى بسقوط بغداد فى يوم ٩ أبريل ٢٠٠٣، ويظهـــر هـــذا التشابه جلياً لمتابع الصحافة المصرية قبل وأثناء وبعد الغـــزو مـــن خلال تعبيرها اليومى عن مختلف القوى الفكريـــة ورؤيتهـــا لهـــذا الحدث. بل إن المتابع للخطاب الثقافى العربى يلاحـــظ أن وصـــف

الجبرتي يتماهي إلى حد كبير مع مفردات هذا الخطاب منذ هزيمة ١٩٦٧ مروراً بانتصار أكتوبر ١٩٧٣ والذى تحول إلى هزيمة سياسية كما يرى البعض فى كامب ديفيد ١٩٧٩ ثم غزو بيروت سنة ١٩٨٢ واحتلال العراق للكويت فى عام ١٩٩٠ ثم الحرب الأمريكية الأولى ضد العراق فى عام ١٩٩١ ثم سقوط بغداد ٢٠٠٣، كل هذا، بخلاف تعقيدات وإشكاليات القضية الفلسطينية، يعطى انطباعاً بأن العرب يعيشون مأساة تشبه إلى حد كبير الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة.. كما يرى الجبرتى، ومما يعطى الأحداث طابعاً دراماتيكياً يتضاءل بجواره إحساس الجبرتى بالمأساة.. هو أن العرب اعتادوا الهزائم فى العصر الحديث، وبالتالى لا ينطبق عليهم الشق الثانى من الجبرتى "وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال" وهى الجملة التى تعبر عن إحساس الجبرتى بالمرارة للغزو الفرنسى الذى جاء لحضارة كان يعتقد أنها لا زالت متفوقة.

ومنذ هذه الحملة وحتى اليوم والعرب يعيشون بإحساس المرارة والعجز نتيجة لقصورهم عن اللحاق بالآخر الغربى، ولم يستطع الخطاب الثقافى المدعوم بقوى ثقافية تقدمية إحراز أى تقدم نهضوى، بل استهلك هذا الخطاب نفسه فى آلية تكرار قضاياه، وأى

متابع للخطاب الثقافى فى التسعينيات سيجد قضايا مثل تحرير المرأة والخلافة الإسلامية والعلم والدين يعاد تكرارها ربما بأسماء مغايرة ولكن من خلال تبنى مواقف بل وحجج وبراهين المرحلة الليبرالية ورموزها، وتمزق هذا الخطاب ما بين التفوق الغربى ثم مزيد من التفوق الغربى فى التسعينيات من القرن العشرين وحتى الآن بصفة خاصة، وإعادة تدوير قضاياه وعجزه عن تجاوزها، ثم قيامه بجلد الذات نتيجة لهذا الفصام والعجز وهى الحالة الذهنية التى انعكست بصورة آلية فى معالجة الصحافة المصرية لغزو العراق، فمع اختلاف طرق المعالجة وآلياتها إلا أن الصحافة بوصفها أداة تسجل ما يحدث بشكل يومى -كما كان يفعل الجبرتى- قد سادها فى الأغلب الأعم لغة أقل ما توصف به هو اللغة البكائية التى تستمد مرجعيتها بصورة مباشرة من خطاب هزيمة ١٩٦٧ وسنجد الصحافة تردد تعبيرات مثل النكبة وإزالة آثار العدوان.. إلخ.

والمستقبل الذى تبشر رياحه بأنه لن يكون فى صالح العرب سيتسم إذا استمرت هذه الحالة بإعادة خلق خطاب النكبة بكل أبعاده وتجلياته فى مجالات قد تبدو بعيدة عن التأثير السياسى المباشر، فكما يرى جاك دريدا إن قهرية التكرار لن تقوم إلا بإعادة خلق ما حدث بالفعل [٢٠٠]، فتكرار خطاب النكبة لن ينتج إلا نكبات جديدة.

شهدت حقبة التسعينيات من القرن العشرين نشأة ما بات يُعرف باسم النظام العالمى الجديد بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية للهيمنة على العالم، وخاصة دول الجنوب، ولقد كانت لهذه الهيمنة تجليات سياسية واقتصادية وثقافية هامة على العالم العربى.

حيث يبدو للمتابع لعلاقات الولايات المتحدة بالعالم العربى أن حقبة التسعينيات تميزت عما قبلها بوجود أمريكى سافر فى المنطقة على المستوى السياسى بوصفها الراعى الأساسى وربما الوحيد لمفاوضات السلام بين العرب والكيان الصهيونى والتى لم تصل إلى شيء ملموس حتى الآن.

أما على المستوى العسكرى فقد بدأت هذه الحقبة بتدخل مسلح من قبل الولايات المتحدة وحلفائها ضد العراق فى عام ١٩٩١. وبعد سنوات قليلة من انتهاء هذه الحقبة قامت الولايات المتحدة باحتلال قطر عربى بوزن العراق وتاريخه.

وصاحب هذا المد الاستعمارى الجديد ترويج لمفاهيم ثقافية عديدة مثل القرية الكونية وثورة الاتصالات وانفجار المعلومات ونهاية التاريخ وصدام الحضارات والشركات المتعدية الجنسية... إلخ فيما أطلق عليه ظاهرة العولمة بأبعادها المختلفة.

وعلى الرغم من كل هذا الجهد الدؤوب* لتشريح هذه الظاهرة فإنه لم يخرج فى النهاية عن المواقف الفكرية الثلاثة المعروفة للفكر

العربى الحديث والمعاصر تجاه الغرب منذ الحملة الفرنسية وحتـى الآن، فهناك من يرفض العولمة بأبعادها المختلفة وهناك من يقبلهـا بإطلاق وهناك من يتحفظ عليها ويقوم بنقدها كما يرى السيد يـسن (٢٠١).

ويلاحظ أن سقوط الاتحاد السوفيتى وانفراد الولايات المتحـدة بقيادة الرأسمالية العالمية ووجود خطابات قد تبدو متناقضة ظاهريـاً فى أحيان كثيرة قد أوقع الخطاب الثقافى أحياناً فى التخـبط وعـدم رؤية الأمور بوضوح، فعلى سبيل المثال يلاحظ جـلال أمـين أن التيارات اليسارية تميل إلى اتخاذ مواقع يمينية من ظاهرة العولمـة ومن الغرب بصفة عامة، على عكس التيارات اليمينية التى اتخـذت مواقع منفتحة تجاه نفس الظاهرة (٢٠٢) .

ويرى الباحث أن هذا الخلط جاء نتيجة للمزج ما بين الـسياسى والثقافى فالاتجاهات اليسارية معروفة بعدائها للرأسـمالية العالميـة واتخاذ مواقف نقدية تجاهها، واتخاذها لمواقع منفتحة سابقة نتيجـة لوجود المعسكر الاشتراكى ومعارضتها الحالية للغرب نتيجة لهيمنة الليبرالية الجديدة والثقافة الأمريكية والتى جاءت التوقعات اليسارية إزاءها صحيحة إلى درجة كبيرة، فالجنود الأمريكان تركوا المتحف الوطنى فى بغداد للسلب والنهب بعد سقوط بغداد مباشرة.

أما الاتجاهات الإسلامية فالمسألة تجاهها أعقد نتيجة لوجود خطابات معلنة تتفق أحياناً مع أمريكا وتختلف أحياناً ووجود وقائع فعلية تشير إلى تحالف هذه التيارات مع النظام الأمريكي.

فالتيار الإسلامى ما زال يؤكد على التناقض الثقافى الأساسى بين الإسلام والغرب، فعادل حسين يرى أن العولمة مؤامرة غربية أمريكية على الإسلام من خلال آليات عديدة (دعم القوى العلمانية، وحماية الأفراد المرتدين عن الإسلام، ودعم النظم الاقتصادية العلمانية المعادية للإسلام وجهود الكتاب والمستشرقين والإعلاميين والفنانين) [٢٠٣] .

وعلى المستوى الحركى جاء التقارب بين التيارات الإسلامية والولايات المتحدة أثناء حرب أفغانستان نتيجة لاعتقاد هذه التيارات أن التناقض الثقافى مع الغرب الصليبى أقل من التناقض الثقافى مع الغرب الملحد (الاتحاد السوفيتى) [٢٠٤] .

وهناك تحالف ما بين النظم العربية الرجعية والولايات المتحدة الأمريكية ربما يعود إلى ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ وحتى الآن، وتحلل العديد من الأدبيات العلاقات الاقتصادية والسياسية المركبة بين التيارات الإسلامية ونظم شبه الجزيرة العربية والولايات المتحدة الأمريكية فيما أطلق عليه البعض البترودولار أو الإسلام الثروى النفطى [٢٠٥] .

والسؤال المطروح بقوة الآن هل انفصم هذا التحـالف خـلال الأحداث المتعاقبة فى فترة التسعينيات بدءًا بحرب الخليـج الثانيـة ١٩٩١ وانتهاءً بسقوط بغداد فى أبريل ٢٠٠٣؟

ويبدو ظاهريًا أن هذا التحالف قد انتهـى خاصـة فـى الشق الخاص بتحالف الولايات المتحدة مـع الإسـلام الحركـى وتـشهد العلاقات توترًا على مستوى التحالف بين الأولى والنظم العربيـة، ولكن يلاحظ أن فلسفة العولمة وسياقاتها المختلفة قد وضـعت فـى محك الاختبار مع أحداث ١١ سبتمبر والتى أكدت علـى عولميـة الحدث عبر آليات العولمة الإعلامية من ناحية، وربط هذا الحـدث بالواقع العربى من ناحية أخرى، والاستفادة من التناقض الثقافى بين الغرب والإسلام كما تزعم الولايات المتحدة من ناحية ثالثة، وهـى العناصر الثلاثة التى تشابكت لتصنع دراما غزو الولايات المتحـدة الأمريكية للعراق.

١١ سبتمبر جدل الداخل والخارج:

مع انتهاء الغزو العراقى للكويت، وما ترتب عليه مـن نتـائج سياسية وثقافية شملت العالم العربى، وخاصة مع الصعود المتنـامى للثقافة الأمريكية والتى حاولت التنظيم فكريًا لهيمنتها على العالم من خلال مقولتى نهاية التاريخ وصدام الحضارات، فيتم التنظيـر فـى

المقولة الأولى لانتصار المجتمع الرأسمالى الحر فى نهاية المطـــاف كخاتمة لصراع الأفكار والأيديولوجيات، وفى الثانية يتم التأكيد على تفوق الثقافة الغربية الرأسمالية واختــزال الــصراع القــادم فــى الصراعات الثقافية والدينية والعرقية، وقد لاحظ محمد عابد الجابرى أن صامويل هنتنجتون صاحب فرضية صدام الحضارات لا يستعمل الدين كمقياس للتمييز بين الحضارات إلا بالنسبة للإسلام وحده أمــا الحضارات الأخرى فهو ينسبها إلى شىء آخر غير الدين [٢٠٦] .

تتقاطع فرضية هنتنجتون مع تيار ما بعد الحداثة والذى يعتبره الكثيرون الوجه الثقافى والفلسفى للعولمة وهو تيار يركز على فكرة موت الأفكار الكبرى والأيديولوجيات الشمولية ومن داخل هذا التيار تبرز النزعتان الثقافية والنسبية.

وتؤكد النزعة النسبية فى العلوم الاجتماعية على دراسة (علوم أصل السلالات البشرية وتطور أعرافها وعاداتها ومعتقداتها، كمــا تؤكد على دراسة الثقافات التى يستحيل وضع قاعدة قياسية موحــدة لها) [٢٠٧] .

أما النزعة الثقافية فهى (تغلــب التفــسير الثقــافى للظــواهر الاجتماعية على غيره من التفاسير- اقتصادى- سياسى أو غيــره) [٢٠٨] .

وهى نظريات مناهضة للمدرسة التطورية فى علم الاجتماع والتى كانت تفترض أن (المجتمعات الإنسانية تتطور بطريقة متتابعة وذاتية النمو وفقاً لقانون للتغير شامل ومتماثل يؤدى بها بالضرورة نحو نفس الإنجاز) (٢٠٩) .

ويقدم برنتران بادى دراسة تتقاطع مع هذا الاتجاه، فبعد مقارنة بين العالم المسيحى والذى شهد صراعاً فى العصور الوسطى بين الكنيسة والدولة، هذا الصراع الذى جعل لكل كيان منهما –الكنيسة والدولة– منظومة فكرية مستقلة سمحت بعد ذلك بقبول الغرب لفكرة فصل الدين عن الدولة، وهى فكرة بخلاف تأسيسها على وجود فاصل بين الكنيسة والدولة فى العالم الغربى، فإن لها مرجعية فى المسيحية "أعط ما لله لله وما لقيصر لقيصر"، يقارن المؤلف هذه الأوضاع بنظام الحكم فى الإسلام ليخلص إلى النتيجة التالية (إن عدم الانقسام بين الحيزين الدينى والسياسى فى العالم الإسلامى يجعل نموذج التطور الغربى متعارضاً بعنف مع النموذج السائد فى العالم الإسلامى) (٢١٠) .

ونجد هذا الاتجاه بوضوح فى كتاب آخر صدر أثناء أحداث ١١ سبتمبر لبرنارد لويس، فبعد مقارنة شبه مماثلة لنظامى الحكم فى الثقافتين المسيحية والإسلامية يصل لويس لنتيجة تبدو مقاربة للنتيجة الأولى (ولما كانت الدولة الاسلامية أداة للإسلام، بل وأنشأها

مؤسسها بهذه الصفة، لم تكن هناك حاجة إلى أى مؤسسة دينية منفصلة، فالدولة هى الكنيسة والكنيسة هى الدولة، والله على رأس الاثنتين والنبى ممثله على الأرض) [٢١١] .

ويعلق رؤوف عباس فى تقديمه للكتاب السابق بأن برنارد لويس قد استدعى إلى واشنطن ست مرات منذ حادث البرجين [٢١٢]، ويعدد رؤوف عباس بعد ذلك ملامح الضجة التى أثارها الكتاب فى الصحافة الغربية وعلى شبكات التليفزيون وعبر الإنترنت، فالكتاب جاء فى توقيت فارق بالنسبة للعلاقات الإسلامية الغربية ومن خلال أشهر مستشرق فى الغرب عامة وفى المجال الأكاديمى الأنجلو- أمريكى خاصة [٢١٣].

وبعيداً عن مجال نظام الحكم السياسى يفتتح لويس الفصل الثالث المعنون بالحواجز الاجتماعية والثقافية بتأكيد التمايز المطلق بين العالمين الغربى والإسلامى (ولكن المجتمع الغربى كان يختلف اختلافات أخرى عن المجتمع الإسلامى، وهى اختلافات أكبر وأعمق وإن ظل الناس يتجاهلونها زمناً طويلاً لسبب ما) [٢١٤] وعلى طول هذا الفصل والفصول التالية يعدد لويس هذه الاختلافات الجوهرية العميقة مثل نظرة العالمين إلى المرأة ووضع الكفار فى العالم الإسلامى والرقيق والاهتمام بالعلم وتذوق الموسيقى وتقدير قيمة الوقت.... إلخ، وهى صورة وإن كانت تجافى الواقع فالكتاب

ينتهى وإن بإشارات قليلة إلى منتصف القرن العشرين فإنها تشطح أحياناً فى خيالات الاستشراق التقليدى، فالمسلم حتى الآن لا يهتم بالوقت إلا لمعرفة مواقيت الصلاة [٢١٥] والمسلم لا يرتدى القبعة لأنها تعيقه عن الصلاة بحوافها العريضة، وتوحى رابطة العنق بالنسبة للمسلم بالصليب [٢١٦] .

ومشكلة العالم الإسلامى الأساسية تكمن فى غياب الحرية، وبعد أن يغلق الباب فى وجه المسلمين إزاء تبنى الحرية الغربية يبشرهم بأنهم إذا لم يأخذوا بالنمط الثقافى الغربى فسوف يتعرضون للاستعمار مرة أخرى، والغريب أنه يعدد أنواع القوى القادرة على استعمار الشرق الأوسط مرة أخرى، ولا يذكر من بينها الولايات المتحدة الأمريكية [٢١٧] .

ويلاحظ أن هذه الرؤية تركز على كل ما هو ثقافى دون الالتفاف إلى دراسة أو الإشارة إلى البنى الاقتصادية والاجتماعية للعالم الإسلامى، ومن داخل منظورها الثقافى تقدم عالماً شرقياً يتسم بالسحر والتخلف فى آن واحد إذ هى تقفز على التيارات العقلانية فى التراث أو الحركات الإصلاحية فى العصر الحديث، بالإضافة إلى عدم إشارتها إلى التدخل الغربى المستمر لإجهاض محاولات التحديث الذاتية فى العالمين الغربى والإسلامى.

ورؤية لويس ومن قبله برتران بادى تدخل العالم الإسلامى فى حتمية ثقافية لا فكاك منها فالمسألة أصبحت لا تقتصر علـى نظـم سياسية تواجه العالم العربى والإسلامى صعوبة فى تحقيقها نتيجـة لظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية وخارجية متعددة، بل يمتـد إلى المفهوم الثقافى بالمعنى الأشمل فهناك تمايزات روحية تقتـصر على العالم الغربى وتشكل نظرة الإنـسان الغربـى تجـاه الكـون بمفرداته المختلفة وهى خصائص -لا نجدها عند الإنسان المسلم بناءً على ثقافته الإسلامية فقط.

وكنتيجة سياسية بحتة لابد من التدخل الغربى الأمريكى حتـى ولو بالأسلوب العسكرى لتمدين هؤلاء "البرابرة" نتيجة لعدم قبـولهم الحداثة بالطرق السلمية، وهى المهمة التى قام بها مثقفـون عـرب يقومون بخدمة السياسة الأمريكية كما يرصد "حسن نافعة" فى تعليقه على أفكار فؤاد عجمى [٢١٨] (بعبارة أخرى يرى عجمى أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر كشفت ضمن ما كشفت عن وجود مـشكلة ثقافية كبرى فى العالم العربى ككل لا سبيل لمعالجتها من جـذورها إلا بعملية تحديث كبرى لن تتم إلا بضغط هائل من الخارج وضرب العراق يتيح الفرصة لبدء هذه العملية الكبرى) [٢١٩] .

ولا تقوم رؤية النسبية الثقافية -الحتمية الثقافية- علـى خدمـة الأهداف السياسية الأمريكية فقط ولكنها تتقاطع مع الإعلام المعولم،

حيث تقدم صورة هوليودية للمسلمين تتفق كثيراً مع رؤية برنـــارد لويس، فالمسلم رجل متجهم يحتقر المرأة ويرتدى السروال ويركب الناقة ويعيش حياة متخلفة، وامتزجت هذه الرؤية بالواقع الأفغـــانى القروسطى لتدعم الصورة المعولمة عن المسلمين، فطالبان يمنعون تعليم المرأة ويحطمون تماثيل بوذا ولا زالوا يتعلمون فى الكتاتيــب ويفتقدون لأى بنية تحديثية أساسية وهى صورة قدمها ببراعة لويس فى كتابه، وعلى المستوى الفكرى تتفق أفكار لويس إلى حد كبيــر مع التيارات الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها.

١-**الرؤية الإسلامية المعتدلة:** تتفق الرؤية الإســلامية التــى صاغها من وصفوا بالإسلاميين المعتدلين مع رؤية برتران بـــادى وبرنارد لويس فى تمايز نظام الحكم فى العالمين الإسلامى والغربى بناءً على أسس ثقافية بحتة.

فيرى فهمى هويدى أن العلمانية تتناسب مع المــسيحية علـــى أساس أن الدين المسيحى لا يحتوى على كــم التــشريع القـــانونى والفقهى الموجود فى الإسلام [٢٢٠] فالإسلام كحكم لم يعرف الفصل بين الدين والسياسة، وتمتلىء الرؤية الإسلامية المعتدلـــة بـــرفض العلمانية وما يندرج تحتها من مفاهيم مثل التنـــوير ومـــن حملـــوا

مشاعله في بلادنا، فطارق البشرى يصف التيار الذى قاد لواء ثورة ١٩١٩ وما بعدها بالتيار (الوطني العلمانى المتغرب) [٢٢١].

أما جلال أمين فيرى أن تيار التنوير العربى كالغربى تماماً معاد للدين وأن طه حسين قد افتعل قضية للسخرية من الدين فى قضية الشعر الجاهلى [٢٢٢]، وأن جيل طه حسين قد (فتح الباب لكى تدخل إلينا رياح التغريب كاملة حتى كادت أن تقتلع كل شيء) [٢٢٣]

أما محمد سليم العوا فبعد دفاع طويل عن حق نصر أبو زيد فى التعبير عن آرائه يدعوه إلى النزول على حكم المحكمة والرجوع عن أفكاره [٢٢٤] بما يعنى ضمناً اعترافه بالردة.

والموقف من نظام الحكم والتنوير والعلمنة يفتح الباب واسعاً أمام موقف هؤلاء من تطبيق الشريعة الإسلامية والتى لابد أن ينطلق الدستور من مبادئها [٢٢٥] والتعددية الحزبية والتى يروجون لها كثيراً مع نقدها بصورة مكثفة والدعوة إلى تكوين حزب سياسى إسلامى [٢٢٦]، والموقف من حرية التعبير، ويمتلىء كتاب فهمى هويدى المفترون برفض معظم الاجتهادات التراثية المعاصرة بدءًا من طه حسين وعلى عبد الرازق وانتهاءً بنصر أبو زيد مروراً بسعيد العشماوى بل لا يخطىء الباحث إذا افترض تحريض الكتاب ضد سعيد العشماوى فهو يضع اسمه الأول محمد بين مزدوجتين "محمد" ويتابع فهمى هويدى (والمفاجأة أنه مصرى ومسلم) [٢٢٧]

وتشير هذه الآراء وغيرها الكثير مما تحتويه هذه الكتابات* إلى التأزم السياسى والثقافى الذى تعيشه مصر والعالم العربى تجاه مشروع الحداثة بالإضافة إلى صياغة رؤية توصف بالاعتدال وتتسم بالانتشار والقبول والاحترام فى الأوساط الثقافية فى العالم العربى وفى ظروف الضغط الغربى المتكرر لإفشال جهود التحديث الذاتية ووقوع العالم العربى فى براثن الاستعمار تصبح لهذه الرؤية مشروعيتها بغض النظر عن وضع مشروع الحداثة على محك الاختبار الحقيقى أم لا، بالإضافة إلى أن هذه الرؤية تتشابه إن لم تتفق مع النتائج النهائية لرؤية لويس على المستوى السياسى.

٢-**الرؤية الإسلامية المتطرفة**: إذا كانت الرؤية الإسلامية المعتدلة تتفق مع أطروحة لويس فى شقها السياسى، فإن الرؤية الإسلامية المتطرفة تتماهى مع رؤية لويس الثقافية الأشمل بالنسبة للموقف من المرأة والفنون والعلوم وأهل الذمة.. إلخ، وسيكون من قبيل التكرار رصد منطلقات هذه الرؤية من فكرة تجهيل المجتمع والتى صاغها سيد قطب فى كتابه معالم فى الطريق، حيث الحياة لا تعرف إلا نظامين النظام الإسلامى أو المجتمع الإسلامى والمجتمع الجاهلى [(٢٢٨)] *، (فالمجتمع الإسلامى هو المجتمع الذى يطبق فيه الإسلام عقيدة وعبادة وشريعة نظاماً وخلقاً وسلوكاً، والمجتمع الجاهلى هو المجتمع الذى لا يطبق فيه الإسلام ولا تحكمه عقيدته

وتصوراته وقيمه وموازينه ونظامه وشرائعه وخلقه وسلوكه) [٢٢٩] أما محمد قطب فيرى أن الغرب تاريخياً وبدءًا من المرحلة اليونانية وحتى الآن يعيش فى جاهلية تقوم على تقديس العقل على حساب الروح، وهى جاهلية تؤسس على المادة والحواس والنظم الإدارية والمدنية والحربية [٢٣٠] والعلمانية هى اللادينية ونشأت نتيجة للصراع بين الدولة والكنيسة ولم يحدث هذا فى الإسلام [٢٣١] .

ويناقش كتاب جاهلية القرن العشرين على طول فصوله فساد التصور الغربى فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والجنس والفن.

وهذه الرؤية هى التى دشنت لأفكار الجماعات الإسلامية الحركية فى السبعينيات وحتى الآن بحثًا عن إسلام نقى لا تشوبه شائبة دون توسط حتى الفقهاء السنة الأربعة المعتمدون [٢٣٢] .

واستطاعت هذه الرؤية نتيجة لتحالفها مع السلطة المصرية فى مرحلة السبعينيات وتحت تأثير المرحلة النفطية الخليجية أن تنتشر بين العديد من شرائح المجتمع المصرى وتخلق مرحلة من التأزم العنيف بينها وبين السلطة من ناحية، وبينها وبين الشرائح الحداثية والمثقفة من ناحية أخرى واستطاعت رؤية هذه الجماعات أن تغزو الساحة عبر أربعة محاور:

١-السلطة:-شهدت علاقة السلطة فى مصر بهذه الجماعات حالات من المد والجزر بدءًا من استخدام السادات لهذه الجماعات لضرب الحركة اليسارية والناصرية فى بداية السبعينيات [٢٣٣] وانتهاءً بسلسلة الحلقات التى تنشرها جريدة القاهرة التابعة لوزارة الثقافة المصرية وتعلن فيها قيادة هذه الجماعات العدول عن كثير من أفكارها [٢٣٤].

وشهدت العلاقة فى معظم هذه الفترة موجات من العنف والعنف المضاد. وفى مرحلة التسعينيات وحدها شهدت مصر حالات عنف تمثلت فى اغتيال فرج فودة فى عام ١٩٩٢ ومحاولة اغتيال نجيب محفوظ فى عام ١٩٩٥ ثم تزايد العنف بصورة لم يسبق لها مثيل فى مذبحة الأقصر فى عام ١٩٩٨، بالإضافة إلى أحداث العنف التى استهدفت السياحة وكبار المسئولين. وقد واجهت السلطة هذه الأحداث عبر المواجهة الأمنية غالباً ثم المواجهة الإعلامية والتى قامت على الفصل بين الإسلام وما تفعله هذه الجماعات والتركيز على مقولة سماحة الإسلام واستنارته فى مقابل تفسيرات هذه الجماعات الضالة والمنحرفة [٢٣٥]، ثم اتبعت السلطة أسلوب الاتصالات السرية مع مختلف قادة الفصائل الإسلامية الراديكالية فى السجون لوقف موجات العنف [٢٣٦] والدخول مع هذه الجماعات فى مفاوضات تسعى إلى تقديم حلول وسط مثل إنشاء أحزاب إسلامية

[٢٣٧]، بالإضافة إلى هذه الأساليب اتبعت الدولة أحياناً أسلوب المواجهة الفكرية من خلال تبنى مشاريع ثقافية لإحياء العديد من كتابات عصر النهضة والمرحلة الليبرالية* .

هذه العلاقة التى تقوم على المد والجزر والمواجهة الضيقة أحياناً وتقديم التنازلات أحياناً سادت أجهزة الدولة فترفض جامعة القاهرة ترقية نصر أبو زيد ١٩٩٣/٣/١٨ إلى درجة أستاذ بقسم اللغة العربية بكلية الآداب، وفى ١٩٩٥/٦/١٤ صدر حكم محكمة استئناف القاهرة دائرة الأحوال الشخصية بالتفريق بين نصر أبو زيد وزوجته [٢٣٨]، هذا بالإضافة إلى قضايا الحسبة التى قامت لتكفر مفكرين بعينهم أمام محاكم مدنية حداثية مثل سيد القمنى وحسن حنفى وامتلأت هذه الفترة بحالات مصادرة الكتب والتى تركتها السلطة المدنية إلى سلطة مدنية أخرى متسربلة بأفكار العصور الوسطى وهى لجنة البحوث والتأليف التابعة للأزهر (وفى السنوات الأخيرة بدأ الأزهر دون الدولة يمارس سلطة رقابية على المطبوعات فى كل ما يتعلق بشأن الدين) [٢٣٩].

ولم تقتصر قضايا المصادرة والتكفير على المفكرين فقط بل امتدت للفنانين مثل يسرا وعادل إمام ويوسف شاهين.. إلخ.

ويمتد الفصام إلى وزارة الثقافة التى وقفت مع رواية وليمة لأعشاب البحر لمؤلفها السورى حيدر حيدر فى عام ٢٠٠٠ ثم

وقوف نفس الوزارة ضد روايات ثلاث أخرى وهى "قبـــل وبعـــد" لتوفيق عبد الرحمن و"أبناء الخطأ الرومانسى" لياسر شعبان و"أحلام محرمة" لمحمود حامد [٢٤٠]، وبعيداً عن لعبة التوازنـــات الـــسياسية تشير هذه الحالة إلى فصام عنيف فى الهوية كما لاحظ أحد الباحثين ليعود السؤال الأزلى مرة أخرى (من أنا وبصراحة يراها الـــبعض مستفزة: هل أنا ما تقول به المؤسسة الدينية ممثلـــة فـــى الأزهـــر الشريف، أم ما تقوله السلطة المدنية ممثلة فى بيـــان لجنـــة وزارة الثقافة؟ هل مدخلاتى مقصورة على كل التراث الدينى الذى شـــربته وتعلمته عبر السنين أم كل ما تعلمته أثناء احتكـــاكى فـــى الـــداخل والخارج بفكر "الآخر" الثقافى المختلف) [٢٤١].

إذن شهدت السلطة بمؤسساتها المختلفة حالة مـــن التوازنـــات السياسية مع فكر وحركية جماعات الإسلام السياسى، أثـــرت فـــى التحليل الثقافى الأخير على هوية الدولة ومدى انتمائهـــا وتأكيـــدها على قيم الحداثة.

٢-المؤسسة الدينية: وتشمل الأزهر ودار الإفتاء، وعلى الرغم من تبعية هذه المؤسسات إلى الدولة نتيجة للعديد مـــن الإجـــراءات التى اتخذها عبد الناصر [٢٤٢] وجعلت المؤسسات الدينية كـــالأزهر ودار الإفتاء والأوقاف تابعة للدولة فإن وجـــود هـــذه المؤســـسات بصفتها الدينية يجعل لها طبيعة خاصة، حيث تقوم بدراسة العلـــوم

الدينية وتقديم الفتوى فى الشأن الدينى بصورة دينية اجتهادية يفترض فيها الاستقلال، ولكن المؤسسة الدينية خضعت للعلاقة المتقلبة بين الدولة وجماعات الإسلام السياسى خلال حقبة التسعينيات وذلك عبر العديد من القضايا، فقد اعتبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق فوائد البنوك من الربا المحرم شرعاً وقدم مفتى الجمهورية محمد سيد طنطاوى آنذاك فتوى معارضة لرؤية جاد الحق شيخ الأزهر تقوم على النظر إلى فوائد البنوك بنظرة عصرية بعيداً عن لغة الحلال والحرام، فيما يمثل توازناً بين الدولة (سيد طنطاوى ودار الافتاء) والتطرف الدينى (جاد الحق والأزهر) (٢٤٣).

وخضع خطاب الأزهر بعد تولية محمد سيد طنطاوى لخط السلطة تماماً ويلاحظ الباحث أن خطابه هو إعادة إنتاج لخطاب السلطة، وحدث ذلك أثناء الانتفاضة الفلسطينية حينما اعتبر الفلسطينى الذى يفجر نفسه شهيداً مرة وبعد فترة وحسب توجهات خطاب السلطة يعتبر نفس الشهيد إرهابياً وتكرز نفس الشىء فى غزو الولايات المتحدة للعراق.

٣-المجتمع: شهد المجتمع المصرى منذ السبعينيات وحتى الآن حالة من التدين التى توصف غالباً بالتدين الشكلى وتتمثل فى العديد من المظاهر اليومية المتكررة مثل انتشار نقاب المرأة وتربية اللحية والجلبات القصير وتوقف العمل فى وقت الصلاة ورفع أذان الصلاة

عبر مكبرات الصوت... إلخ بالإضافة إلى انتشار هذا الفكر عبـــر كتب زهيدة السعر وشرائط كاسيت صوتية [٢٤٤] وهى أوضاع نتجت عن ثقافة ازدهرت خلال الحقبة النفطية (١٩٧٤-١٩٨٥) [٢٤٥].

ولعبت الجماعات الدينية دورًا هامًا لاستقطاب الشرائح الدنيا فى المجتمع من خلال الخدمات الاجتماعية مثـــل المراكـــز العلاجيـــة والتعليمية الملحقة بالمساجد الأهلية والتى ظلت تقوم بـــنفس الـــدور حتى بعد انضمامها لوزارة الأوقـــاف، ولعبـــت المؤســـسة الدينيـــة الرسمية دورًا هاماً فى سيادة الذهنية الما قبل حداثية والتـــى تـــسود المجتمع الآن، فمقررات الأزهر فى المرحلة الثانوية مثلاً ما زالـــت تتحـــــــدث عن فقه الرق والغُسل والحيض وأحكام أهل الكتـــاب ربما بنفس الأحكام والتعبيرات القديمة [٢٤٦] .

والمتابع للخطاب الإعلامى بشقيه المقروء والمسموع يلاحظ كم القضايا التى تناقش الغناء والموسيقى وحجاب المرأة.

وتؤكد عينة من الأسئلة التى وجهها المواطنون إلى لجنة الفتوى بالأزهر خلال عام ١٩٩٦ على الحالة الذهنية التى نعيشها حاليـــاً، فهناك سؤال يدور حول المجذوم وهل يجوز الفرار منـــه؟ وتؤكـــد الإجابة أنه يجب الفرار من المجذوم، وسؤال عن حكم الـــدين فـــى وجود كلب للحراسة بالمنزل؟ والإجابة ترفض وجـــود كلـــب لأن الملائكة لا تدخل بيتاً به كلب، وسؤال عن الجن وهل يموتون فـــى

الدنيا ويغسلون ويدفنون مثل الإنسان والإجابة تقول "الظاهر أنهم يعاملون كما يعامل الإنسان ولا ندرى ذلك لعدم وجود نص" [٢٤٧] .

٤-المثقفون: لم تشغل الجماعة الثقافية الحداثية المصرية والعربية بقضية ما كما شغلت بقضية التطرف الدينى فى حقبة التسعينيات، ويحتاج هذا الموضوع إلى دراسة أخرى. ولكن يلاحظ أن الجماعة الثقافية المصرية والعربية عالجت هذه القضية من منطلقين:

أ-البحث عن الحداثة الغربية فى التراث الإسلامى عبر العديد من المشاريع التراثية المعاصرة مثل أعمال حسن حنفى ومحمود إسماعيل وأدونيس ومحمد عابد الجابرى وسيد القمنى ونصر أبو زيد... إلخ وهى أعمال تؤكد على تيارات عقلانية وعلمية فى التراث مثل المعتزلة وابن رشد وأبن خلدون على سبيل المثال. وقد واجه التيار الإسلامى هذه الاتجاهات بالرفض أحياناً وبالتكفير فى أحيان أخرى، وانجذب المثقف الحداثى إلى ساحة التيار الإسلامى ليدافع عن نفسه ويؤكد على إسلامه من خلال استخدام كافة الحجج الفقهية التقليدية والتى سعت هذه الأعمال إلى الخلاص منها أو نقدها.

ب-المواجهة المباشرة مع التيار الإسلامى على أرضية التراث، عبر العديد من الأدبيات التى واجهت هذا الفكر بصورة مباشرة

والتأكيد على تطرفه وخروجه من الإسلام، أو إعادة قضايا العهد الليبرالى وتكرارها مرة أخرى مثل حجاب المرأة (سعيد العشماوى "حجاب المرأة"- جمال البنا "الحجاب" وربما بنفس الأسماء القديمة إقبال بركة "تحرير المرأة" والخلافة الإسلامية تكراراً لعلى عبد الرازق الإسلام وأصول الحكم فنجد سعيد العشماوى "الخلافة الإسلامية" وسليمان فياض "الوجه الآخر للخلافة الإسلامية".... إلخ.

وتنازل المثقف عن حرية التعبير بوصفها قيمة حداثية أساسية وتورط فى تكفير الاتجاهات الإسلامية وإخراجها من الملة، فيستخدم رفعت السعيد مصطلح التأسلم للتعبير عن هذه الاتجاهات المتطرفة، وهو مصطلح يعبر صاحبه عن نسبة هذه التيارات إلى الاسلام كما ينسب من يمارس مفردات الثقافة الأمريكية إلى التأمرك [٢٤٨]، وتكرر نفس الوضع أثناء دفاع التيارات الحداثية والليبرالية عن رواية وليمة لأعشاب البحر ضد محمد عباس إذ شكك العديد من الآراء فى صحة إسلام محمد عباس ودعت إلى إغلاق جريدة الشعب مما جعل البعض يطلق عليهم تعبير كهنة الاستنارة [٢٤٩].

إذن استطاع ضغط الاتجاهات الإسلامية أن يؤدى إلى تراجع الدولة الحداثية خطوات إلى الوراء وهو ما لم تشهده مصر فى المرحلة الليبرالية أو المرحلة القومية الناصرية، وتراجع المثقف الحداثى إلى التراث جعله يحاور الخصم بنفس أسلحته وحججه

وبراهينه مما جعل المشروع الحداثي النهضوي الذي بدأ مع محمد علي يقف ساكناً في لحظته التاريخية إن لم يتراجع إلى الوراء، وسيطرت هذه الاتجاهات على المجتمع أعطت صورة سلبية عن المسلم الذي ما زال يعيش الماضي بكل تفاصيله، وتتفق الصورة الثقافية – بعيداً عن الخلفيات الاقتصادية والاجتماعية– في كثير من أبعادها مع صورة برنارد لويس، فالمسلم حتى الآن ما زال ينظر بدونية إلى المرأة وهناك من يناقش وضعية المرأة وحقوقها وأهل الذمة والرقيق، وهناك مسافات واسعة على المسلم قطعها حتى يستطيع تقبل العلم الحديث وتذوق الموسيقى وتقدير قيمة الوقت... إلخ. وتتقاطع الصورة بحذافيرها مع الوضع الأفغاني الرجعي ومع الوضع المصري والعربي والذي يعاني من أزمة حداثية عميقة تقبع خلف كل شكليات الحداثة الموجودة في المجتمع، وتمتزج هذه الصورة مع رؤية الأفلام الهوليودية لتقدم صورة عولمية للإسلام والمسلمين تؤكدها أحداث ١١ سبتمبر ونسبتها إلى أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة، ويبحث أمثال برنارد لويس عن جذورها التاريخية، ولم يمتلك العالم العربي من المقومات الحداثية والحضارية ما يجعله يفكر قبل أن يصنع إعلامه من حدث ١١ سبتمبر حدثاً كونياً عابرًا للقارات كما فكرت الصين ولكنها ترددت نتيجة لوجود أقلية إسلامية بها دخلت في حسبة التوازنات السياسية [٢٥٠].

واستطاعت الليبرالية الجديدة أن تتسلل إلى العالم العربى والذى لم يكمل مشروعه الحداثى بعد لتستغل أزماته الداخلية وانشطاراته المذهبية الفكرية لتواجه أصولية ما قبل حداثية ما زالت تعيش فى تراثها بأصولية أمريكية ما بعد حداثية لا يهمها إلا الربح الاقتصادى عبر التأكيد على التمايزات الثقافية.[٢٥١]

وسيتحول حدث ١١ سبتمبر إلى حدث كونى يؤرخ له فى النظام الثقافى العربى كهزيمة ١٩٦٧ ويناقش جميع إشكالياتنا الثقافية من خلاله [٢٥٢].

وقبل أن يلتقط العرب أنفاسهم يقع غزو العراق فى عام ٢٠٠٣ وسيفرز هذا الحدث خطابات إعلامية وثقافية مؤيدة لخطاب السلطة المتقلب، وسيناقش البعض هذا الحدث على محك المشروع النهضوى العربى، وسيتعامل معه آخرون من منطلق تراثى... إلخ.

وسيعود جدل الداخل والخارج الثقافى مرة أخرى بعد انتهاء الحدث، ففى أول رد فعل للجماعة الثقافية العربية سيعقد مؤتمر حول تجديد الخطاب الدينى، يعاد من خلاله إنتاج إشكاليات الحداثة والنهضة والعلاقة بالغرب مرة أخرى والجدال مع العولمة الليبرالية على البعد الثقافى فقط مع إهدار البعد الاجتماعى الاقتصادى والذى لن تحدث أية نهضة حداثية مرجوة فى العالم العربى بدون تغيرات اقتصادية واجتماعية جوهرية.

الحملة الأمريكية والحملة الفرنسية هل من أوجه تطابق بينهما؟

فى الفترة من ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وحتى بداية الحملة الأمريكية على العراق فى ٢٠ مارس ٢٠٠٣، انتشر فى الولايات المتحدة الاهتمام بدراسة الإسلام، فبالإضافة إلى كتاب برنارد لويس أين الخطأ؟ أصبح هناك أربعة كتب عن الإسلام ضمن الكتب العشرة الأكثر مبيعاً فى الولايات المتحدة خلال هذه الفترة على قائمة موقع أمازون عن الإسلام، واتجه ٢٣% من مرتادى الإنترنت الأمريكيين إلى مصادر الشبكة المختلفة للحصول على مزيد من المعلومات عن الإسلام [٢٥٣]، (وفى الجامعات تزايد الاهتمام بدراسة الثقافة العربية ولأول مرة فى التاريخ الأمريكى يصبح الإسلام والعالم العربى جزءًا مطلوبًا فى منهج الجامعات والمدارس الثانوية فى أنحاء البلاد) [٢٥٤].

ولعل وجه التشابه الأول بين الحملتين الفرنسية والأمريكية، يتمثل فى الدراسة الثقافية للمنطقة العربية قبل غزوها، فلقد سبقت الحملة الفرنسية مئات الدراسات الاستشراقية* عن الحضارة الإسلامية والمجتمع الإسلامى، وعلى الرغم من أن الدراسات الثقافية فى هذا المجال قد سبقت هاتين الحملتين، ولم يكن الهدف منها هو التمهيد للاستعمار فإن هذه الدراسات فى جوانب كثيرة منها كانت ذخيرة جيدة ليتعرف المستعمر على طبيعة المجتمعات التي

سيقوم بغزوها، مما جعل أحد الباحثين يحكم على الاستشراق بأنه مقدمة الاستعمار [٢٥٥].

ويلاحظ أن الحملة الفرنسية قد جاءت إلى مصر نتيجة لتحول فرنسا إلى نمط إمبراطورى وهى نفس الظروف التى تعيشها الولايات المتحدة الأمريكية حالياً بعد سقوط المعسكر الاشتراكى وتحولها إلى نمط امبراطورى كوزموبوليتانى، وإن تميزت الأخيرة بأنها أول إمبراطورية يتفق لها أن تحقق مكان الصدارة فى الميدان الاقتصادى والعسكرى والتكنولوجى والثقافى لأول مرة فى التاريخ [٢٥٦].

وإذا كانت الحملة الفرنسية مُحملة ولو ظاهرياً بالثورة الفرنسية وبمبادئها عن الحرية والإخاء والمساواة فإن الحملة الأمريكية بدأت نتيجة لأحداث الحادى عشر من سبتمبر، وبعد ما تعاطفت أوروبا مع الثورة الفرنسية ومبادئها واعتنقها العديد من المثقفين ثم قاموا برفض التوسع الإمبراطورى الذى قام به نابليون بعد ذلك [٢٥٧]، فإن نفس الموقف تعرضت له أمريكا بعد تعاطف العالم كله مع ضحايا ١١ سبتمبر، فالعديد من الساسة والمثقفين والشعوب وقفوا ضد الإجراءات التى اتخذتها الولايات المتحدة بعد ذلك كالحرب على أفغانستان والعراق واحتلالهما.

تأتى بعد ذلك الخطابات المعلنة للغازى، فالخطاب الفرنسى قد أعلن أن الحملة ما جاءت إلى مصر إلا لتحريرها من زمرة المماليك لأن فرنسا دولة تقوم على الحرية والمساواة أو بتعبير الجبرتى (من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية) [٢٥٨]، وربما تتناص مصطلحات مثل ديكتاتور العراق مع مصطلحات مثل الظلم والطمع المملوكى التى وردت فى منشور نابليون الذى وجهه إلى المصريين غداة الحملة، أما وقوف صدام ضد المصالح الأمريكية فهو تكرار لوقوف المماليك ضد التجار الفرنساوية (إنه من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية، يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الأمة الفرنساوية ويظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدى) [٢٥٩] والهدف أن يحكم المصريون أنفسهم [٢٦٠] كما هو هدف الحملة الأمريكية المعلن، ولكن إذا كانت الحملة الفرنسية بالفعل تحدثت إلى المصريين على أساس أنهم أمة يحكمها مغتصب أجنبى (المماليك) فإن الوعى القومى الذى سيتنامى بعد ذلك سيجعل المصريين بقيادة مشايخ الأزهر يعزلون مندوب السلطان العثمانى فى مصر ويولون محمد على "الأجنبى" هو الآخر ولكن وفق شروطهم فى خطوة غير مكتملة للإحساس القومى الذى لم يتخلص نهائياً من الرابطة الدينية [٢٦١]، فإن الحملة الأمريكية جاءت إلى العراق حيث منطقة التشظى

الثقافى فأزاحت الديكتاتور وزرعـــت التفتـــت القــومى والمـــذهبى والثقافى*.

وإذا كانت الحملة الفرنسية نجحت فى إقامة سلطة متعاونة معها "الديوان العام" فإن أمريكا نجحت فى إقامة مجلس الحكم الانتقـــالى، والقارىء لتاريخ الجبرتى لا يجد هذا الكم من التـــشكيك والـــرفض والتخوين الذى يواجه مجلس الحكم الانتقالى الموجـــود حاليـــاً فـــى العراق، ربما يعود ذلك إلى شخصيات العلماء التى تشكل منها هـــذا الديوان وحملها للواء الحركة الوطنية قبل وأثنـــاء وبعـــد الحملـــة الفرنسية على عكس مجلس الحكم الانتقالى والذى جاء تشكيله مـــن شخصيات يتشكك فيها المواطن العربى والعراقى قبل وأثناء تشكيل هذا المجلس.

وفى أول رد فعل على معرفة أمراء المماليك بوصول الحملـــة إلى مصر زعموا (أنه إذا جاءت جميع الإفرنج لا يقفون فى مقابلتهم و(أنهم يدوسونهم بخيولهم) [٢٦٢]، وفـــى أول رد فعـــل للعـــسكرية العراقية زعم الصحاف وزير الإعلام العراقى نفس الزعم ودائماً ما كان يصف الأمريكيين "بالعلوج"، هل يمكن مطابقة الموقفين؟ مصر الواقعة تحت ظلمات الفترة العثمانية – المملوكية التى لا تعلم شـــيئاً عن العالم الخارجى والنهضة الأوروبية وفى ذهن أمرائها الحملات

الصليبية التى كانت تتكسر بسهولة ودائماً أمامهم، بموقف الصحاف الذى يعلم أنه يكذب فى عصر السماوات المفتوحة.

وهل يمكن مقارنة هرب السلطة العراقية بهرب أمراء المماليك لصعيد مصر وقيادة المقاومة هناك.

وهل يمكن مقارنة دراسة علماء الحملة لمصر وآثارها وكتابة وصف مصر وفك رموز الكتابة الهيروغليفية بعد ذلك بقيام القوات الأمريكية بنهب وسلب آثار العراق (٢٦٣).

ولا يمكن أبدًا مقارنة بوش بنابليون (٢٦٤)، فمهما كانت الأسباب الاستعمارية الحقيقية لنابليون فإن خطابه كان يحترم الإسلام وباستثناء دخوله هو وجنوده الأزهر لم تقم الحملة بأشياء أو بإفراز خطابات مناهضة للإسلام، أما خطاب بوش فهو محمل بطابع دينى واضح يخص المطامع الاستعمارية هو الآخر، ولكن هذا الخطاب يفتح فضاءات لا نهائية أمام صراع وتطاحن الأصوليات وازدهارها (٢٦٥).

ولا يمكن كذلك مقارنة الاستشراق الفرنسى السابق على الحملة الفرنسية الناتج عن ذهنية قروسطية تقوم على العداء وعدم المعرفة التامة بالآخر بكتابات برنارد لويس القادمة من الأكاديمية الأمريكية فى القرن الحادى والعشرين والباحث لا يهدف إلى إبراز أوجه التشابه بقدر ما يهدف إلى إثبات أن لكل مرحلة تاريخية فضاءاتها

وظروفها بحيث يكون أى إسقاط تاريخى هو مــن قبيــل الهــوس بالماضى وهى إشكالية يعــانى منهــا الخطــاب العربــى الثقــافى المعاصر، وبالنسبة لحالة العراق سنجد هذه الحالة موجودة وبقــوة فهناك عشرات من التقاطعات والتشبيهات والتناصات ما بين أمريكا والمغول والتتار والصليبيين وما بين بوش وهولاكو... إلخ.

وبالطبع لا يمكن إدانة التناصات التاريخية ولكن ما يغفله هــذا الخطاب هو بيان أوجه الاختلاف والظروف بــين هــذه المراحــل التاريخية، بالإضافة إلى إعادة إنتاجها من خلال التأكيد على خطاب الهزيمة والنكبة والضياع.

ويرى الباحث أنه لا يمكن مقارنة الحملة الفرنسية التى أثــارت الوعى بأهمية الحداثة والدخول إلى قيم العقــل والتنــوير بالحملــة الأمريكية التى جاءت من خلفيات ما بعد حداثية، ومن الخطأ الأخذ بنظريات ما بعد الحداثة التى تقوم على التــشظى الثقــافى ومــوت الأفكار والنظريات الكبرى خاصة فى منطقتنا المفتتة أصلاً نتيجــة لتراكمات تاريخية أفرزت انقسامات مذهبية وعرقية وفكرية لا نهاية لها، بحيث تصبح الحداثة خيارًا استراتيجياً أمام المثقــف العربــى، فالقول بترسيخ والأخذ بنظريات ما بعد الحداثة فضلاً عــن إعــادة تدوير الذهن العربى نتيجة لأحداث النظريات الغربية سيؤدى إلــى حالة من التشظى المعرفى والثقافى ستعيشه الثقافة العربية مستقبلاً.

ولكن الملاحظة الأساسية التي يمكن أخذها في الاعتبار عند إجراء أي مقارنة بين الحملتين هي تقدمية خطاب الجبرتي بالنسبة للعديد من المقولات التي ترددت أثناء الحملة الأمريكية، فالجبرتي التراثي والذي جاء من خلفية أزهرية لم يكن مهووساً بالماضي كما نجد حالياً.

(من يقرأ خطبة مبعوث الملك الأشوري سنحاريب (٧٠١ ق.م) إلى شعب أورشليم المحاصر والتي يدعوهم فيها إلى الاستسلام ويحرضهم ضد حاكمهم ويعرض عليهم المكافأة بدلاً من توقيع العقوبة، لن يجدها تختلف كثيراً عن الرسائل التي أسقطتها طائرات الغزو الأنجلو أمريكية على مدن العراق، قبل استسلامها، وتحت نيران القصف الجوي العنيف: "حققوا السلام معي استسلموا لي، وسيأكل كل فرد منكم عنباً من كرمه وتيناً من بستانه وسيشرب كل واحد ماء من بئره) [٢٦٦] ويغيب الوعي أكثر فأكثر عندما تنشر إحدى الصحف تقريراً عن [٢٦٧] العواصف التي هبت على القوات الأمريكية لتساعد العراقيين، ويتصدر التقرير الآية القرآنية "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله"، ثم يتحدث التقرير عن وجود ٣٠٠ ألف جندي أمريكي مزودين بأحدث الأسلحة والقنابل الذكية، لكن إرادة الله حولت القنابل الذكية إلى غبية وظهرت العناية الإلهية بجوار الشعب العراقي فهبت عواصف رملية في غير أوانها على

القوات الأمريكية وكلما اشتد هجـوم القـوات المعتـدين اشـتدت العاصفة الرملية (ولم تستطع الأسلحة الذكية التفوق علـى عوامـل الطقس التى سخرها الله للوقوف بجانب الشعب والجنود العـراقيين) [٢٦٨] ويستمر التقرير ليتحدث عن العناية الإلهية واصطدام طائرات الغزو ببعضها البعض (وكأن الله سخر جنودًا من الملائكة تقف ليس فقط بجوار الجنود العراقيين وإنما مع المقاومـة العراقيـة) (٢٦٩) وهذه العناية الإلهية بحسب التقرير لا تملك أمامها إلا أن تقول "وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى) [٢٧٠].

هل يمكن القول بتدنى الوعى فى هذه الـصحيفة ذات الاتجـاه القومي بخلفياته العلمانية عن وعى الجبرتى الأزهرى منذ أكثر من قرنين وهو يسخر من قراءة العوام للبخارى واستنجادهم بالله؟ (فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك ويقولـون لهم إن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقـاتلون بالـسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الأصوات والصراخ والنباح، فلا يسمعون ولا يرجعون عما هم فيه) [٢٧١] .

وهناك ملمح ثالث من ملامح تدنى الوعى فرض نفـسه بقـوة وبخاصة على الإعلام العربى والمصرى ويتمثل فى تصوير القـوة الأمريكية بصورة جبارة تفوق الوصف والعقل ولا يمكن مجابهتها، بدون إعطاء القارىء المتوسط الثقافة أى خلفيات علمية عـن هـذا

الإنتاج التكنولوجى، ففى أول أيام الغزو نـــشرت جريـــدة الأهـــرام القاهرية تقريرًا عسكريًا بهذا المعـــــنى (٣ آلاف قذيفـــة موجهـــة وعشرات الآلاف من القنابل التقليدية و ٧٠٠ صاروخ توما هـــوك فقط على العراق خلال الـــ ٤٨ ساعة الأولى من الحرب، والرئيس الأمريكى يمكنه عقد مؤتمر تليفزيونى مغلـــق مـــع كـــل القيـــادات العسكرية الأمريكية حتى أصغر ضابط فى ميدان القتـــال، أقمـــار التجسس ترصد كل شبر فوق الأرض وتتجسس على مكالمات القادة العراقيين المدنيين والعســـــكريين، وإجراءات إليكترونية أمريكيـــة تصيب وسائل الدفاع العراقية بالعمى والصمم) [٢٧٢] .

وإذا كان هذا الخطاب موجه إلى القارىء العادى، فإن الخطاب الموجه إلى المثقف لا يختلف كثيـــراً (المجـــال الكهرومغناطيـــسى للنبضة الكهرومغناطسية بإمكانه أن يقلى" و"يشوى" كل المكونـــات الإليكترونية والكهربية لأى دائرة كهربية أو إليكترونية كمـــا أنـــه سوف "يُقلى" أى ترانزستور أو مقاومة كهربية أو دائرة إليكترونيـــة متكاملة) [٢٧٣] .

وهو الموقف الذى يتقاطع مع تعليق الجبرتـــى علـــى إحـــدى التجارب العلمية التى أجراها علماء الحملة الفرنسية أمامه (ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة، ينتج منها نتائج لا يـــسعها عقـــول أمثالنا) [٢٧٤] .

إذن لا يمكن المقارنة بين الحملتين إلا من منطلقين أساسين:

المنطلق الأول يتمثل فى مدى فاعلية حدث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى الوعى الثقافى العربى باتخاذه تاريخاً محورياً أصبحنا نؤرخ بـه فى الخطاب الثقافى العربى وهو ما تنبه له طارق البشرى ودعا إلى اتخاذ يوم ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٠ (يوم الانتفاضة) كحدث بديل نؤرخ به فى ثقافتنا المعاصرة بدلاً من الحديث عن ما قبل ١١ سبتمبر ومـا بعده [٢٧٥].

فهذا الحدث بغض النظر عن وجهات النظر المتباينـة تجاهـه أصبح حدثًا محوريًا على الساحة الثقافية العربيـة والسؤال هـل سيؤرخ هذا الحدث لعصر جديد؟ كالحملة الفرنسية واتخاذها منطلقاً للتاريخ العربى الحديث والمعاصر، وما نجم عن هذا الحـدث بعـد ذلك من احتلال أفغانستان وسقوط بغداد فى ٩ أبريل ٢٠٠٣.

المنطلق الثانى: وتتمثل فى الخطابات التى أفرزت نتيجة للغزو الأمريكى وهى خطابات تجد خلفياتها المباشرة وأصولها المعرفيـة لما حل بالوعى المصرى والعربى نتيجـة لهزيمـة ١٩٦٧، تلـك الهزيمة التى خلفت صراعاً عنيفاً بين قوى فكريـة متعـددة حـول تاريخ مصر الحديث والمعاصر وعوامل النهضة والانكسار والرؤى التراجعية للتاريخ وبروز النزعة التراثية الماضوية الهاربـة مـن الحاضر المهزوم إلى ماضٍ سعيد.

الحملة الأمريكية: دراسة حالة لنماذج ثقافية وصحفية"

أفرز الغزو الأمريكى للعراق العديد من الخطابات التى ينطلق أصحابها من خلفيات فكرية وأيديولوجية مختلفة، وهذه الخطابات تعتمد فى خلفياتها المعرفية على نكسة ١٩٦٧، فالخطاب التراثى مثلاً والهوس بالماضى والذى انتشر بشكل واسع فى الصحافة المصرية أثناء وبعد الغزو يجد أصوله وفصوله فى النزعة الماضوية التى تعيشها الثقافة المصرية بعد النكسة سواء على المستوى الإسلامى الذى يرى فى الماضى عصرًا ذهبياً أو لدى القوى العلمانية والتقدمية التى بحثت عن الحداثة الغربية فى التراث العربى الاسلامى، ولا يمكن رد الخطاب القطرى الذى رفع لواء مصر أولاً وقبل كل شيء أثناء وهذه الحملة إلا بالنظر إلى تراجع دور مصر العروبى بدءًا من انهيار المشروع القومى الناتج أيضاً عن هزيمة ١٩٦٧ ثم تقلص الدور الاقليمى المصرى إلى حدوده المحلية بعد اتفاقية كامب ديفيد، وبالمثل سنجد خطاباً بكائياً يستمد مفرداته من نتائج النكسة فى عام ١٩٦٧، ويمكن رد خطاب الإعلام المصرى الرسمى إلى تقلبات خطاب السلطة أو ما يمكن أن نطلق عليه الخطاب الذى يعيد إنتاج خطاب السلطة فى مصر.

١-**الخطاب المؤيد للغزو:** بالنظر إلى الغزو الأمريكى للعراق وما يحيط بهذا الحدث من تشابك بين انحياز الولايات المتحدة إلى إسرائيل وتردى واقع القضية الفلسطينية وإعلامية الحدث وضغوط الرأى العام.. إلخ كلها ظروف ضيقت من مساحة الخطاب المؤيد للغزو أو جعلته تابعاً وراء آليات إنتاج أخرى جعلته مؤيداً للغزو وإن كان بصورة غير مباشرة.

١/١ **خطاب التأييد المباشر:** يرى مأمون فندى أن الحملة الأمريكية قادمة إلى العراق لطرد صدام حسين بالقوة [٢٧٦]، ويرى أنه من فساد المنطق أن يرفض العراق الشرعية الدولية فى عام ١٩٩٠ ويتمسك بها فى أزمته الأخيرة [٢٧٧].

وتصبح الحملة الأمريكية ضرورية للقضاء على الأنظمة الديكتاتورية فى المنطقة [٢٧٨].

ويرى هذا الخطاب أن حركة أسامة بن لادن حركة إرهاب دينى ومن يؤيدها من المصريين يسمى "جماعة بن لكن" [٢٧٩] ويدعم وجهة نظره بالعديد من الحجج ولعل الحجة الرئيسية هى غياب الديموقراطية عن الواقع العربى بصفة عامة والعراق بصفة خاصة،

ويركز هذا الخطاب أيضاً على عدد من المؤشرات الثقافية المزمنة فى النهضة العربية المعاصرة مثل إشكالية الحداثة التى يعانى منها العالم العربى [٢٨٠].أو أن العرب ظاهرة صوتية وأنهم يعيشون فى مأزق دائم لا ينتهى [٢٨١] أو الدعوة إلى إطلاق الأسرى الكويتيين وضرورة تغيير النظام العراقى [٢٨٢].

وعلى الجانب الآخر لهذا الموقف لابد من ربط مصر بالولايات المتحدة الأمريكية عن طريق أهمية المعونة الأمريكية لمصر [٢٨٣] أو اتخاذ أمريكا كنموذج فى التحديث العلمانى يجب أن تقتدى مصر به [٢٨٤]، وعلى هذا الأساس فمصلحة مصر العليا هى الارتباط بالولايات المتحدة الأمريكية ويتم وصف الرافضين للتطبيع مع إسرائيل بالمكارثية المصرية [٢٨٥]، والنتيجة المسكوت عنها والتى لا يتم الإفصاح عنها مباشرة أن إدارة بوش هى إدارة الحسم العسكرى والوضوح الأخلاقى [٢٨٦]، ويكسب منطوق الكلام (إدارة الحسم العسكرى والوضوح الأخلاقى) عنه رغبة الكاتب فى الدعوة إلى استقبال الجيوش الأمريكية المتصفة بالحسم والتى ستنهى الحرب بأقل الخسائر وبسرعة فائقة* وبالتالى لا مانع من التعامل معها وخاصة أنها تتسم بالوضوح الأخلاقى*.

١/٢خطاب التأييد غير المباشر: في يوم الخميس ٢٠ مارس ٢٠٠٣ نشرت الأهرام تحقيقاً عن بغداد مصحوب بصورة لطفل مشوه كتب تحتها أطفال العراق هم ضحايا صدام [٢٨٧] وتحقيقاً بعنوان اليأس يسيطر على بغداد [٢٨٨]، وفى يوم ٢١ مارس أجرى إبراهيم نافع حواراً مع ديك تشيني نائب الرئيس الأمريكى حيث ردد مقولات الخطاب الأمريكى وتم إبرازها كمانشيتات فى صفحة الأهرام الأولى (العملية العسكرية ستمضى سريعة جداً ولا نريد أن نبقى فى العراق أكثر مما هو ضرورى، ليست هناك قائمة ضرب تتضمن دولاً عربية وإسلامية أخرى بعد العراق، إسرائيل ليس لها دور فى الحرب ونأمل فى ألا يستطيع صدام إطلاق الصواريخ عليها، الرئيس بوش ملتزم برؤيته حول وجود دولة فلسطينية تعيش فى سلام إلى جانب إسرائيل) [٢٨٩]، وفى نفس العدد ملف بعنوان الحرب ضد العراق جاءت إحدى مانشيتاته بعنوان (الولايات المتحدة بدأت عملية "حرية العراق"، غارات جوية وصاروخية على بغداد استهدفت "قطع رأس" القيادة العراقية خلال اجتماع برئاسة صدام) [٢٩٠] *.

وبدءًا من يوم ٢٦ مارس ٢٠٠٣ بدأت الصحيفة تغير من خطابها فتنشر موضوعات عن ضحايا الهجوم الأمريكى (أبرياء العراق يدفعون فاتورة "القنابل الغبية) [٢٩١]، ومانشيت بعنوان

(١٠٠٠ شهيد عراقى فى أكبر معركة برية بين المقاومة والقوات الأمريكية بمدينة النجف) [٢٩٢] .

٢-إعادة إنتاج خطاب السلطة: المتابع للإعلام المصرى أثناء الغزو الأمريكى للعراق سيلاحظ أن هذا الإعلام- خاصة المرئى التابع تماماً للسلطة- قدم معالجة لهذا الغزو وبدأت بالحياد التام وكأن الحرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل. وفى أيام الغزو الأولى تم وصف الاعتداء الأنجلو أمريكى بالهجوم على العراق وتم وصف قوات الاعتداء بقوات التحالف.

وتبلورت مواقف الخطاب الرسمي المصرى فى عدة مقولات فصدام بسياسته التى بدأها منذ عام ١٩٩٠ هو المسئول عما يحدث الآن، ولا يمكن فرض الديموقراطية على نظم غير ديموقراطية بالقوة، والربط بين القضية الفلسطينية والقضية العراقية واعتبار القضية الأولى هى أساس الأزمة فى الشرق الأوسط، وضرورة الالتزام بقرارات مجلس الأمن، والمحافظة على مصلحة مصر العليا[٢٩٣].

والتأكيد دائماً على دور الرئيس مبارك فى المحافظة على أمن مصر، وجهوده الدائبة لاحتواء الأزمات فى المنطقة، مع إشارات

عديدة لجهوده الجبارة فى دعوة العراق إلى الالتزام بقرارات الشرعية الدولية، وهذه المقولات جاءت فى مؤتمرات صحفية ومقابلات متعددة أجراها الرئيس مع جهات إعلامية أو ألقاها مباشرة فى خطابات موجهة إلى الشعب المصرى [٢٩٤] .

وتمت إعادة إنتاج هذا الخطاب فى الصحافة الموالية للدولة (الرسمية) فسمير رجب يوظف الدين لإعادة إنتاج هذا الخطاب أو يصدر مقاله المنشور فى جريدة الجمهورية يوم ٢٠ مارس ٢٠٠٣ بهذه الآية القرآنية (وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب: مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد) [٢٩٥] وتتقاطع الآية مع عنوان فرعى للمقال، التاريخ يشهد بأن مصر تعاملت مع الأزمة وفقاً لمبادىء ثابتة وشجاعة لم تتغير أبداً. والمقال يمتلىء بنقد الحكومة العراقية (فالحكومة العراقية ظلت تتلاعب بمقدرات هذه المنطقة على مدى ١٣ سنة) [٢٩٦] .

ويختتم المقال بالتأكيد على موقف السلطة (أو فيما يتعلق بنا نحن فى مصر فإن الرئيس يريد ونحن جميعاً معه- بأن تتوحد صفوفنا أكثر وأكثر وأن نصون جميعاً جبهتنا الداخلية ونوفر لها سياجات الحماية من أية جماعات أو نزعات ذاتية هوجاء وألا تكون

للمزايدات والشعارات الجوفاء مكان بيننا.. حتى يظل الأمن القومى المصرى هو الوسيلة والغاية فى كل وقت) [٢٩٧] وأكد إبراهيم نـــافع نفس المعنى فى عموده حقائق (ولا يمكن أن يدفع أحد ثمن أخطـــاء الآخرين فنحن فى مصر رفضنا الحرب لأدراكنا لخطورتها علـــى أمننـــــــا ومستقبلنا) [٢٩٨] .

وخصصت الأهرام فى يوم ٢٢ مارس ٢٠٠٣ صـــفحة كاملـــة تدور عن إعلان مصر لحالة الطوارىء فى كل ما يهم الناس، السلع الأساسية –الكهرباء– المرور– النقل... إلخ [٢٩٩].

وتأكد نفس الاتجاه فى عمود عبد الرحمن عقل الناس والاقتصاد (وعلينا أن نتعامل خلال الأيام القليلة القادمة على أننا نعيش اقتصاد حرب) [٣٠٠] .

ونشـــــرت أخبـــار متعددة عن حالة تأهب فى جميع الوزارات والمحافظات لمواجهة آثار الحرب [٣١٠]، بالإضافة لصورة مـــواطن كويتى يشترى كميات من الخبز استعداداً لمواجهة أزمات الحـــرب [٣٠٢].

وإعادة إنتاج خطاب السلطة يظهر أكثر فى موقف الأزهر مـــن هذه الحرب ففى بداية الغزو أصـــدر مجمـــع البحـــوث الإســـلامية بالأزهر بياناً اعتبر فيه أن هذه الحرب صليبية ودعا إلى الجهاد ضد

الغزاة واعتبر أن الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة ورفض شيخ الأزهر إن يوقع على هذا البيان وبعد المسيرات الشعبية الضخمة غير شيخ الأزهر مواقفه ليقول إن الجهاد فرض لرد العدوان وبعد الضغوط الأمريكية على الأزهر عبر الدكتور على السمان عن موقف الأزهر الجديد ووصف صدام حسين بأنه ظالم ومعتد [٣٠٣].

هذا الموقف المتردد والخائف من نتائج الحرب هو ما جعل الحزب الوطنى يؤجل مسيرة الاحتجاج ضد الحرب، حتى استطاعت المقاومة العراقية أن تصد العدوان فى بدايات مبهرة للمقاومة العراقية جعلت المظاهرات تخرج يومياً إلى الشوارع مما دفع الإعلام الرسمى ليغير لغته من وصف الاعتداء بالحرب إلى الغزو وتحولت قوات التحالف إلى القوات المعتدية أو قوات الاحتلال (وهو ما انعكس على الأداء الإعلامى المصرى وتمثل فى توجيه النقد المكثف للعدوان قانونياً وسياسياً واعتباره خرقاً للمواثيق والمعاهدات الدولية، وأن يفتح الباب أمام حالة توتر عسكرى غير مرغوبة ومن شأنها أن تؤثر على الاستقرار الإقليمى ككل) [٣٠٤] وبعد اختلاف فصائل المقاومة العراقية وظهور التباينات السياسية والثقافية الداخلية فى العراق، رددت السلطة وردد الإعلام معها أن انسحاب قوات الاحتلال الآن سيؤدى إلى حرب أهلية بالعراق.

ولعل أهم إفرازات هذا الخطاب الذى يمكن وصفه بالميوعة الفكرية هو الخطاب القطرى الذى يؤكد على انعزال مصر واهتمامها بشؤونها الداخلية.

٣- الخطاب القطرى:- مصر أولاً وقبل الجميع

ينطلق الخطاب السياسى الرسمى من واقعية مفرطة تشبه النعامة التى تضع رأسها فى الرمال حتى لا ترى الخطر، فالخطاب الأمريكى المعلن قبل الغزو بأيام قليلة ردد أنه لا توجد دولة عربية على قائمة العقوبات الأمريكية ولم تمض أيام قليلة على هيمنة الولايات المتحدة على العراق حتى ردد الخطاب الأمريكى أن إيران وسوريا وكوريا الجنوبية ينتمون إلى محور الشر، والخطاب السياسى الرسمى الواقعى يؤكد أنه يعمل لمصلحة مصر ويبتعد عن العنتريات [٣٠٥].

وقد رفعت مجلة روز اليوسف لواء الخطاب القطرى وخصصت مجموعة من الملفات بعنوان مصر أولاً وأيضاً قبل الجميع بدأتها بتاريخ ٢٤:٣٠ مايو ٢٠٠٣ [٣٠٦].

وتنطلق روز اليوسف من إعادة إنتاج خطاب السلطة وتبنى مقولاتها الأساسية (الذى صنع مأساة العراق عليه أن ينهيها) [٣٠٧] ويتم التمهيد للدور القطرى بتناص مع موقف السادات من القضية

الفلسطينية (هل أسقطت مصر كل الملفات الأمنية القديمة المتعلقة بالفصائل الفلسطينية منذ كامب ديفيد؟) [٣٠٨] .

وقبل الغزو أيضاً فعلت روز اليوسف الخطاب الأمريكى المعلن فى حوار قامت به المجلة على شكل ندوة مع السفير الأمريكى فى القاهرة (نفضل حل الأزمة العراقية سلمياً ولا نرغب فى الحرب) [٣٠٩] وحملت المجلة تبعات الحرب على صدام حسين وإدراته السيئة للأزمة (الخطأ القاتل: رهان صدام حسين على الخلافات الأوروبية الأمريكية) [٣١٠] والمخرج الوحيد للأزمة كما يرى أحد الصحفيين بالمجلة هو رحيل صدام حسين [٣١١]، وفى فترة الحرب صدر عدد من المجلة بملف عنوانه (حرب ظالمة وغامضة) [٣١٢] إلا أننا نجد موضوعاً عن مصر وكيفية أن تتجنب الحرب والموضوع كله ملخص فى العنوان الرئيسى له (المخطئون صنعوا التاريخ... بغطرستهم فى واشنطن وسوء تقديرهم فى بغداد، حماية مصر من آثار كارثة العصر) [٣١٣].

وبعد سقوط بغداد تنشر المجلة موضوعاً يؤكد على كل مقولات الرئيس [٣١٤]، بالإضافة إلى صورة كبيرة بعرض صفحة كاملة لمواطن عراقى يقبل جنديًا أمريكيًا [٣١٥]، وانطلاقا من الخطاب البكائى اعتبرت المجلة سقوط بغداد نكبة ونكسة وكارثة [٣١٦]،

ويلاحظ أن هذه الأوصاف البكائية الثلاثة وضعت فى عنوان واحد، ولم تكن هذه الأوصاف موجهة إلى الأمة العربية أو انطلاقاً من خطاب قومى بكائى بقدر ما هى موجهة إلى النظام العراقى السابق، وبدأت المجلة فى الاتجاه أكثر إلى الذعرة القطرية، فكل من يخالف توجهات السلطة الهادئة والهادفة أمن مصر يسعى إلى دفع هذا الوطن إلى حافة الخطر[٣١٧]، ومن يسعى إلى إشراك مصر فى أى توجه عربى فهو يريد أن يورطها فى الحرب ويستنزف الجيش المصرى [٣١٨] وأصدرت المجلة عدداً خاصاً عن التوجه القطرى جاء ملفه الرئيسى بعنوان (مصر أولاً.. وأيضاً قبل الجميع) [٣١٩]، واعتبرت المجلة أن المشروع القومى الذى انطلق من مصر الناصرية جعل مصر (هدفاً لهجوم ضار وشرس انتهى باحتلال سيناء) وأن (نصر أكتوبر ومعادلة مبارك للتوازن الحضارى أخرجا مصر من دائرة الاستهداف الشريرة) [٣٢٠]، وفى حوار آخر للمجلة مع محسن لطفى السيد أكد على نزعة عمه –أحمد لطفى السيد– المصرية التى تنطلق من الثقافة المصرية البحتة بعيداً عن ثقافة الصحراء العربية [٣٢١] .

وحاولت المجلة أن تستكتب كل من ينتمى للقطرية المصرية حتى لو أدى ذلك إلى رفض الثقافة العربية والثقافة الرعوية بصفة عامة، وهو ما يتماشى مع الديانتين المسيحية والإسلامية فيرى

علوانى مغيب أن المصريين أمة توصلت إلى التوحيد وصاغت إبداعات جديدة فى المسيحية (الرهبنة) وفى الإسلام (التصوف) [٣٢٢]، وهو الحل السحري الذى يقدمه العديدون لصياغة مسيحية مصرية أو إسلام مصرى متنصلاً من أى شىء يمت إلى الصحراء.

والواقع أن هذا الخطاب القطرى* يستمد أصوله وفصوله من توجه السلطة السياسية فى مصر، وهو التوجه الذى يريد عزلة مصر وقيادتها عن المنطقة فى آن واحد فمقدمة الملف سابق الذكر تتضمن تأكيداً على مصلحة مصر العليا والثقافة المصرية الذاتية (صوناً للعروبة.. وجسراً للتواصل الإسلامى الإنسانى) [٣٢٣] .

وفيما عدا ذكر أحمد لطفى السيد وحسين فوزى تخلو الرؤية من الفضاء الثقافى الذى أثيرت فيه قضية عروبة مصر فى بدايات القرن العشرين ولم تمتلك هذه الرؤية جرأة طه حسين حين أثار قضية عروبة مصر فى إحدى مقالاته بكوكب الشرق فى عام ١٩٣٣ حين اعتبر العرب مجرد غزاة مثل اليونان والترك والفرس والرومان... إلخ [٣٢٤]، ولا جرأته حينما أكد على ضرورة ارتباط مصر بثقافة حوض البحر الأبيض المتوسط فى كتابه مستقبل الثقافة فى مصر فى عام ١٩٣٨.

ويلاحظ أن ميوعة هذه الرؤية تأتى من منطلق آخر بخلاف خطاب السلطة وهو جماهيرية مجلة روز اليوسف التى لا تستطيع أن تعبر عن رؤية ثقافية نخبوية تتردد الآن على ساحة الثقافة المصرية، فخليل عبد الكريم يرى مثلاً (ومن مهازل التاريخ أنهم فيما بعد– أى العرب– أطلقوا لقب البرابرة على مواطنى الدول التى دعسوها بخيولهم المباركة: مصر، فارس، العراق، الشام مع أنها أعلى منهم بما لا يقاس فى مدارج الحضارة والمدنية) (٣٢٥).

وتتقاطع المسألة الثقافية مع هوية مأزومة بين العلمانية والعروبة والإسلام عند سيد القمنى (فلا يعود التاريخ المصرى مع الملك مينا موحد القطرين، لكن مع شيخ العرب عمرو بن العاص محتل القطرين) (٣٢٦). أما محمد حسين مؤنس فيرد على توجه قاسم عبده العروبى ويرى أن مصر أخذت عنوة واغتصاباً (٣٢٧).

وتعتبر هذه بعض الأمثلة القليلة على هذا الاتجاه، إلا أن خطاب روز اليوسف افتقد الحس الزمنى حيث أوائل القرن وعصر يسعى إلى النهضة وتتصارع فيه مئات الأفكار من إسلامية إلى فرعونية مروراً بالفكرة العربية.. إلخ، بالإضافة إلى التأصيل التاريخى الذى تكتسبه مثل هذه الكتابات فأنتجت خطاباً يتمشى مع توجهات السلطة ويسطح وعى المواطن العادى الذى ينفعل وقت الغزو ثم يذهب إلى

الكدح وراء معاشه بعد انتهاء الغزو وهو ما قامت به المجلة بذكاء فالملف الذى فتحته جاء بعد سقوط بغداد وتوزع وعى القارىء بين تساؤلات غامضة عن هذا السقوط المروع وما إذا كانت هناك صفقة وراءه، بالإضافة إلى وضع اقتصادى متردد، مما سمح لها بالحديث مباشرة عن مصر وتوجهها القطرى وإن كان بصورة غير حاسمة.

ويلاحظ الباحث على الخطابات الثلاثة السابقة (خطاب التأييد، أداة إنتاج خطاب السلطة، الخطاب القطرى):-

١-أن هذه الخطابات تنطلق من السلطة سواء بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة، فالسلطة لم تصرح علناً بتأييدها للغزو ولكن لعبة التوازنات التى شهدتها مصر وخاصة فى حقبة التسعينيات وسبق أن أشار إليها الباحث. أفرزت التأييد المباشر للغزو.

٢-تحول الإعلام المصرى بعد فترة من الغزو ونتيجة للمقاومة العراقية وضغوط الرأى العام إلى تأييد المقاومة العراقية ونقد قوات الغزو.

٣-تميزت الأهرام قبل وأثناء الأيام الأولى للأزمة بتأييد صارخ للغزو عبر نشر حوارات أو تحقيقات أو موضوعات تؤيد الغزو وتصور القوة الأمريكية بالقوة التى لا تقهر وبأن العراق بلد مدمر

بسبب سياسات نظامه. واستخدمت اللغة المحايدة الناقدة للعراق في نفس الوقت وعلى الرغم من أن الأهرام به وجهات نظر عديدة معارضة للغزو فإن رأى مجلس تحريرها بدءًا من رئيس التحرير وحتى المحررين امتاز بتوجه واضح لتأييد الغزو في البداية، أما المعارضة فجاءت من قبل كتاب المقالات من خارج الجريدة.

٤-تميز الإعلام المصرى الرسمي- المرئى والمسموع- بإعادة إنتاج خطاب السلطة وتغيير الأقنعة تبعاً لتوجهاته.

٥-ركزت روز اليوسف على القطرية المصرية انطلاقاً من توجه السلطة الخفى وانطلاقاً من علمانية تبحث عن جذورها في المصرية بعيداً عن نزعات عروبية قد تجر مصر إلى كارثة أو نزعات دينية صحراوية.

٦-يلاحظ حشد الإعلام المصرى للمصريين خلف السلطة وأصابتهم برهاب الحرب والنظر إلى المصلحة المباشرة عبر التأكيد على تردى الأوضاع الاقتصادية وإحكام القبضة الأمنية حتى لا تعم الفوضى.

٧-استغلت السلطة الغزو في إلقاء تبعة فشلها الاقتصادى المتحقق منذ سنوات طويلة على الحرب، وعودة العاملين في الخليج واحتمالات ضرب السياحة وتهديد قناة السويس... إلخ والمتابع

للصحافة فى هذه الفترة سيجد أن الصفحات الأولى من كل الصحف القومية تتضمن أخبارًا وموضوعات عن تأثير الحرب اقتصاديًا بالسلب على مصر.

٨-يستمد هذا الخطاب أصوله وفصوله من مصر السبعينيات، حيث التوجه القطرى والتنصل من القضايا القومية والقيام بلعبة توازنات بين كافة القوى والتيارات، ومع إلغاء الرقابة المباشرة على الصحف فى فترة السبعينيات ووضع قيادات صحفية على علاقة مباشرة مع السلطة وتأخذ توجهاتها مباشرة منها.. كل هذه الظروف أفرزت خطابات تبدو للمتابع أنها تتناقض ظاهرياً بين بداياتها ونهاياتها وهو الأمر الذى انعكس أيضاً على خطاب المؤسسة الدينية.

٤-**الخطاب المعارض للغزو:** على الرغم من وجود أصوات معارضة عديدة داخل الصحف القومية فإن التوجه الأساسى لهذه الصحف كان مؤيدًا للغزو بخلاف صحف المعارضة والصحف المستقلة والتى كانت فى معظم إن لم يكن كل الأحوال معارضة للغزو سواء فى المعالجة الخبرية أو مواد الرأى (مقالات) أو اللغة المستخدمة داخل هذه الصحف ويلاحظ أن هذه الصحف لم تخضع معالجتها الصحفية لتقلبات السلطة بل استثمر بعضها الأزمة لتقدم

نقداً مباشراً لتردى الأوضاع الاقتصادية والسياسية التى نعيشها حالياً.

انطلقت جريدة العربى صحيفة الحزب الناصرى من معارضتها للنظام السياسى الداخلى لمعالجة الغزو فى الأعداد السابقة للغزو، فالأنظمة العربية غالبيتها ديكتاتورية تتماثل مع ديكتاتورية الرئيس العراقى ونظامه وبالتالى فإن الولايات المتحدة لا تدعو إلى الديموقراطية بقدر ما تسعى إلى تدمير العراق والسيطرة على ثرواته [٣٢٨]. واعتبر عبد الحليم قنديل وجود صدام على رأس السلطة اختبارًا للصلابة والصمود [٣٢٩]، واعتبرت الجريدة فى حوارٍ مع شبكة س بى إس الأمريكية أنه لا قيمة لحياة بلا أمان وأن العدوان على العراق عدوان على مصر [٣٣٠]، وقدمت العربى نقداً عنيفاً لقانون الطوارىء وانهيار حالة المجتمع المدنى وحقوق الإنسان فى مصر. ولا قيمة لمؤتمرات القمة العربية وأن الجامعة العربية لا فائدة من ورائها والهدف الاستعمارى الجديد هو خلق إسرائيل الكبرى [٣٣١]*، وقدمت الجريدة نقداً للمثقفين العرب وضياع جهودهم وراء الهتاف بلا أى نتائج عملية [٣٣٢]، واستخدمت الجريدة المانشيتات العريضة الملونة والصور الموحية وتزويد كل عدد بملف يحمل اسماً موحياً، فعدد ٢ مارس ٢٠٠٣ مثلا زود بملف عنوانه لا لخيانة الدم العربى.

أما جريدة الأسبوع المستقلة فصدرت يــوم ٣ مــارس ٢٠٠٣ بمانشيت رئيسي بعنوان (يا حكام العرب اتحدوا.. التاريخ لا يرحم) [٣٣٣].

وربط مصطفى بكرى بين الدفاع عن العراق والعمل العربـــى المشترك واستخدام كل الأسلحة الممكنة للدفاع عن العراق [٣٣٤] .

وقامت الأسبوع على مدى عددين بتتبع المظاهرات وأفردت لها مساحات كبيرة وعبرت عن مظاهرة يوم ٢٧ فبراير ٢٠٠٣ بصورة بعرض الصفحة الأخيرة عبارة عن رسم تعبيــرى لكتــل بــشرية ومكتوب تحتها مصر تنتفض، كلنا هنا قنابل بشرية [٣٣٥]، وعالجت المظاهرات عالمياً، ففى العدد التالى صدرت الجريدة بمانشيت كبير بعنوان بوش ضد العالم.. والعالم ضـــد بــوش، ومانــشيت آخــر، شيراك.. شرودر .. بوتين هؤلاء هم العرب الحقيقيون [٣٣٦] .

ويلاحظ أن النقد الداخلى الذى وجهته العربى أقوى مــن نقــد الأسبوع فالأسبوع قدمت متابعات نقدية للأزمة عربياً وعالمياً ولــم تقم بنقد الأوضاع الداخلية بل نشرت حواراً مــع وزيــر الإعــلام المصرى [٣٣٧] وهناك سمة هامة اشتركت فيها معالجة الــصحيفتين وهى الطابع التفاؤلى فى الفترة السابقة على الحرب، ففى يــوم ١٦

مارس نشرت العربى حواراً مع الفريق سعد الدين الشاذلى أكد فيـه أن اقتحام القوات الأمريكية لبغداد مستحيل [٣٣٨] .

أما الأسبوع فقد تساءل محمود بكرى هل تتحول العراق إلـى مقبرة للأمريكان؟ [٣٣٩] ونشرت حواراً مع طارق عزيز: مستعدون للدفاع عن أنفسنا ومواجهة أمريكا والهجوم على العراق بداية النهاية لأمريكا [٣٤٠] وبعد الغزو استمرت المعالجة الصحفية فى الجريدتين تتسم بالتفاؤل، فصدرت العربى يوم ٣٠ مارس بمانـشيت (إجبـار القوات الأمريكية على وقف التقدم إلى بغداد لستة أيام، بغداد يا قلعة الصمود، المقاومة العراقية كشفت أكاذيب أمريكا [٣٤١]، واعتبـرت الجريدة أن ما حدث فى العراق معجزة وأن القيادة العراقية تصرفت بحكمة ولم تدفع بكامل قواتها [٣٤٢]، وتسليح الشعب العراقى ينسف فكرة الطاغية [٣٤٣]، أما الأسبوع فقد أصدرت طبعة ثانية يـوم ٢٤ مارس ٢٠٠٣ لمتـــابعة أخبار المقاومة، وصـــدرت بمانـشيت تفاؤلى ديماجوجى (الأمريكان بقوا مسخرة يا رجالة) [٣٤٤] . وكتب مصطفى بكرى مقالة بالعقل بمانشيت عريض بعنـوان (الله أكبـر) [٣٤٥] .وبداخله عنوان فرعى (بغداد العروبة والإسلام ستبقى شامخة تتحدى هولاكو العصر جورج بوش) [٣٤٦]، واستمر تفاؤل الصحيفة ففى عدد ٣١ مارس جاء المانشيت على النحو التـالى (المعتـدون يغيرون خططهم عدة مرات.. والعراقيون يتحركون بثبـات) [٣٤٧]،

وجاء الحوار مع الشاذلى فى الأسبوع ليتسم بالفجاجة فهو يصرح: الجيش العراقى يستطيع الصمود ٢٠ عاماً [٣٤٨] .

وواصلت جريدة العربى اتجاهها التفاؤلى حيث صدر عدد ٦ أبريل ٢٠٠٣ بمانشيت (مقتل مئات الأمريكيين فى معركة مطار بغداد) [٣٤٩].

ويلاحظ أنه قبل سقوط بغداد بقليل بدأت صحف المعارضة فى تقديم نقد عنيف لدول الخليج وبصفة خاصة دولة الكويت، فقد نشرت العربى صورة كبيرة فى الصفحة الأولى لكويتى يقبل العلم الأمريكى ومذيلة بكلمة (السقوط) [٣٥٠]، وكتب محمد عودة (ليس هناك حدث يثير التقزز والاشمئزاز ويلطخ ما بقى من تاريخ العرب مثل أن تدار الحرب ضد العراق من عاصمة عربية وأن تنطلق القوات الغازية من عواصم وموانىء عربية) [٣٥١]، وطالبت الجريدة بمنع مرور السفن الحربية الأمريكية والبريطانية من قناة السويس [٣٥٢].

أما الأسبوع فقد جاء المانشيت الرئيسى للعدد الصادر يوم ٢٨ أبريل ٢٠٠٣ بعنوان (إمارة الكويت المحتلة تعلن الحرب على عمرو موسى) [٣٥٣]، وطالب سيد نصار بطرد الكويت من جامعة الدول العربية (فإنهم- أى الكويتيين بتصرفاتهم منذ نشأة الدولة

الكويتية بعد إقتطاعها من محافظة البصرة العراقيــة عــام ١٨٩٩ بقرار من المعتمد البريطانى فى الخليج كانوا عامل تخريب وتهديــد للأمن القومى العربى) [٣٥٤]، ويطالب محمود بكرى بطــرد إمــارة الكويت المحتلة المارقة من جامعة الدول العربية ومقاطعة حكومتها ومؤسستها الرسمية [٣٥٥] ويصل نقد الجريدة أقصاه عنــدما تنــشر صورة لكويتى يحمل العلم الأمريكى والبريطانى مذيلة بـــ (عبــد أمريكى سفيه والجنسية كويتية يهلل لأمريكا وبريطانيا لذبح العراق) [٣٥٦].

وهذا الخطاب المعارض والمقاوم أفرز خطاباً تراثيــاً بامتيــاز لتفعيل روح المقاومة العراقيــة والــشعوب العربيــة والإســلامية المتضامنة معها.

٤-١ الخطاب التراثى: من المقاومة الفعليــة إلــى الاســتنجاد بالتراث: يلاحظ أن مفردات الخطاب التراثى التى تم توظيفها فــى الغزو الأمريكى للعراق لم تكن أكثر من عنتريات لم تفعل شــيئاً*، وستعم مفردات هذا الخطاب المجلات الثقافية كــالهلال ووجهــات نظر، وتم توظيف الخطاب التراثى ليخدم التوجهات الأيديولوجيــة لكل اتجاه فلم يقتصر الخطاب التراثى على المعارضة فقط بل امتــد للصحف القومية، فمجلة روز اليوسف تنشر تحقيقاً عن شيعة العراق

والذين يحيون واقعة كربلاء للبكاء على سيد شباب أهل الجنة بعد عقدين من الزمن نتيجة لحكم صدام حسين ويمتلىء التحقيق بصور لرجال تسيل من وجهوهم وصدورهم الدماء ويستخدمون السيوف والسلاسل الحديدية لضرب الرؤوس والصدور نتيجة للندم [٣٥٧] والتحقيق نقلاً عن شبكتى سى.إن.إن، وبى بى سى الأمريكتين، ويثير هذا التحقيق عدة نقاط تتفق مع توجهات المجلة فهو أولاً يؤكد على التشرذم الطائفى فى العراق ولا تنطلق المجلة من منطلق الخطاب المعارض والذى يرى أن التشرذم الطائفى فى العراق سيستهلك القوة العسكرية والسياسية للولايات المتحدة، وإنما يؤكد التحقيق على التشرذم الطائفى الذى يؤكد على عنف الممارسات الشيعية وخصوصية المسألة الشيعية وصعوبة احتوائها عربياً [٣٥٨] وخضوعها فيما سبق لديكتاتورية النظام السابق وكلها أهداف تتمشى مع اتجاه المجلة.

أما جريدة الأسبوع فخصصت صفحات كاملة للاتجاه التراثى فى أعدادها السابقة واللاحقة للغزو، فقد صدرت يوم ٢٤ فبراير ٢٠٠٣ بمانشيت (الحرب الصليبية باتت على الأبواب، أين صلاح الدين) [٣٥٩].

أما مصطفى بكرى فيرى (تهجموا على الرسول صلى الله عليه وسلم، اعتدوا على المحرمات، فتحوا الأبواب للمرتدين، أطلقوا غلاة القساوسة المتطرفين، حاصرونا وتعاملوا مع شيوخنا ورموزنا بوصفهم قتلة وإرهابيين، تدخلوا لتغيير مناهجنا التعليمية، وسعوا لتفسير أحكام القضية وفقا لمصالحهم وأهوائهم) [٣٦٠]، ويحمل العدد ملفاً بعنوان الحرب الصليبية والعجز العربى، وفى تقرير مترجم عن مجلة ديرشبيجل الألمانية (نكشف ما كنا نخاف الكشف عنه، إنها الحرب الصليبية ضد الإسلام) [٣٦١]، ويتساءل أسامة عفيفى (ما هو السر وراء اختيار ميدان السيدة زينب كمكان لإعلان الاحتجاج ضد العدوان على العراق؟ هل لأننا اكتشفنا أن الحل الوحيد لمواجهة الأمريكان هو استعداء السيدة عليهم أم لأن السيدة زينب رضوان الله عليها هى كما يقول الموروث الشعبى أم العواجز!!) [٣٥٢]، وفى يوم ٢٤ مارس صدرت الجريدة بمانشيت (بوش يقرر هدم المسجد الأقصى فى حال سقوط بغداد) [٣٦٣] ويتساءل حيدر خضير (هولاكو القرن العشرين هل ينجح فى إسقاط عاصمة الخلافة الإسلامية) [٣٦٤] وبدأت حدة البعد التراثى تقل تدريجياً بعد سقوط بغداد*، وفى إشارة إلى تراجع العمل العربى المشترك يستوحى قاسم عبد قاسم شخصية صلاح الدين الأيوبى ليتساءل: صلاح الدين الأيوبى هل صنع عصره، أم صنعه عصره؟ حيث

يبحث عرب هذا الزمان عن منفذ أو مخلص يخرجهم من ضباب هذه الأيام الرمادية لزمن ردئ خلقناه بالسلبية والسكون والسكوت) [٣٦٥].

ويستعرض عطية القوصى تاريخ العراق كله من السبى البابلى إلى تدمير هولاكو لبغداد إلى سقوط بغداد الأخير [٣٦٦]، ويؤكد المؤلف على التقاطع التاريخى (وما أشبه اليوم بالبارحة، وها هى العراق تتعرض اليوم لعدوان صليبى غاشم جاءها من ناحية الغرب على غرار عدوان المغول الذى وقع عليها من الشرق وكأن التاريخ يعيد نفسه، وكما استهدف المغول الإسلام وخلافته فى الماضى، فصليبيو التاريخ الحديث يستهدفون الإسلام أيضاً هذه الأيام متواطئين فى ذلك العدوان مع الصهيونية العالمية) [٣٦٧].

ويختم الكاتب مقالته بالتأكيد على الاستنجاد بالتراث (لكن الله ناصر دينه وقد وعد عباده المسلمين بالنصر) [٣٦٨]، ويؤكد يوسف زيدان فى مقال آخر بنفس العدد على أن الحضارة العربية الإسلامية دخلت بعد سقوط بغداد على أيدى التتار أفقاً مأساوياً حزيناً لم يخرج منه المسلمون إلى اليوم [٣٦٩].

ويلاحظ أن الخطاب التراثى دخل بعد سقوط بغداد فى المرحلة التشاؤمية فبعد ما كان يتم الاستنجاد بالتراث لدعم روح المقاومة،

تتم استعادة التراث للبكاء على الأطلال، فيكتب فاروق عبد القادر عن تراجيديا كربلاء [٣٧٠]، وهذا التوجه التشاؤمى والذى استبق الأحداث ونشأت المقاومة الشعبية بعد ذلك.

٤-٢خطاب الهزيمة: وأيديولوجيا جلد الذات: يمتاز خطاب الهزيمة بالنبرة البكائية والتى تستمد أصولها من هزيمة ١٩٦٧ فتنشر جريدة الأهرام الاقتصادى مجموعة من الموضوعات الصحفية المسلسلة بعنوان العراق وإزالة آثار العدوان بإشراف أحمد يوسف القرعى بدأت بالعدد الصادر يوم ٢١ أبريل ٢٠٠٣ [٣٧١] .

وتصدر جريدة العربى يوم ١٣ أبريل ٢٠٠٣ ونصف الصفحة الأولى عبارة عن صورة كبيرة لنساء يبكين ويلطمن الخدود ومذيلة بعنوان المحنة [٣٧٢] .

وهذا الخطاب الذى انتقل من المقاومة إلى التراث انتهى بالنكبة والبكاء، (صدام لم يهرب.. وخيانة بغداد بدأت فى البصرة) [٣٧٣] ووصفت الجريدة وكتابها عدة احتمالات ليس من بينها خيانة السلطة العراقية، فيضع محمد عبد الله بدر ثلاثة سيناريوهات لتفسير اختفاء صدام حسين، السيناريو الأول الخيانة ويرفض هذا الاحتمال لاستحالة الهرب بكل هذه الجحافل العسكرية، والسيناريو الثانى الهرب المدروس وينقصه ظهور الرئيس المتكرر أثناء الغزو، أما

السيناريو الذى يؤيده الكاتب فهو الاختفاء فى الشقوق المعدة لقيادة المقاومة الشعبية فيما بعد (٣٧٤) وتطرح جريدة الأسبوع فى مانشيتاتها الرئيسية يوم ١٤ أبريل نفس الأسئلة حول صدام حسين (الأبطال لا يستسلمون والأعداء حتماً سينهزمون، لغز اختفاء صدام حسين، هل قتل .. خانه قائد الحرس.. اختفى تحت الأرض) (٣٧٥)، وفى ٢١ أبريل تنشر الجريدة مانشيتاً كبيراً (صدام يظهر مجدداً ويقول لقد خانونى) (٣٧٦)، وتنشر الجريدة صوراً متعددة لصدام حسين وهو بالقبعة الغربية أو بالعقال العربى أو بالزى العسكرى أو بالقبعة الروسية، ويكتب مصطفى بكرى تقريراً يوم ٢٨ أبريل ٢٠٠٣ يرى فيه أن صدام حسين اكتشف الخيانة متأخراً وسعى للتحرك ولكن بعد فوات الأوان (٣٧٧) .

ويلاحظ أن جريدة العربى والتى وصلت إلى أقصى معارضتها للنظام بنشرها لبيان المثقفين المصريين والذين يعترضون فيه على بيان الرئيس مبارك والذى اعتبر أن العراق هو سبب العدوان الأمريكى (٣٧٨) . هذه الجريدة المعارضة للسلطة تؤيد نظام صدام حسين الديكتاتورى والملاحظة الثانية أن تنوع صور صدام والتناول الإعلامى له ولشخصه والاختلاف حوله فهو فى رأى البعض خائن وفى رأى آخرين مخلص للعروبة والإسلام وكاره لإسرائيل) (٣٧٩).

وبالإضافة إلى حالات التخبط التى شهدها الخطاب المعـــارض نتيجة لكارثة سقوط بغداد يلاحظ أنه بعد ســقوط بغــداد مباشــرة تراوحت المعالجة بين عدم تصديق خيانة النظام العراقــى، وحتــى وإن سقــط النظام لأسباب غير معلومة فلن تنتهى المقاومة أبدا (لم تسقط بغداد المقاومة) و(أبداً لن نستكين) [٣٨٠] وهو ما يتناقض مــع أخبار وتقارير وصور عن انتهــاك الجنــود الأمريكــان للنــساء العراقيات [٣٨١]، وهو الاتجاه اللاهث والذى يشك فى كــل شـــىء (مطلوب محاكمة كل عربى عاون الأمريكان فى احتلال العــراق) [٣٨٢].

وتصدر مجلة الهلال فى عدد مايو ٢٠٠٣ ملفاً بعنوان مراجعة الذات، يحتوى على عدة مقالات تعبر عن النقــد العنيــف للــذات الحضارية فيما يشبه جلداً للذات، فيتحدث صلاح قنصوة عن الذات والهوية والآخر الحضارى وتأثير هزيمــة ١٩٦٧ علـــى الــوعى العربى المعاصر وفشل مشروعات النهضة وإعادة قــراءة التــراث والحنين إلى الماضى، وبدلاً من التعلم من الغرب أصبح هذا الأخير هو الآخر اللعين فى الوعى العربى (وبدلاً من ذلك علينا أن ندرس لماذا سبقنا واستعمرنا، والإجابة هى أنه استطاع أن يقيم رأســماليته الوطنية التى أدت إلى أن ينشىء كل إقليم من أقاليم دولته القوميــة. أى وطنه الذى يستوعب أمته وأن يطور علمه وأن يرفع من قيمـــه

العصامية ويسمح بالتعددية وتداول السلطة ومن ثم تزدهـر جميع الآراء ومنها نقد الرأسمالية نفسها [٣٨٣] ويتطرق الكاتب إلى أن أكثر الجماهير التى احتشدت لمواجهة الغزو ومعارضته هـى جماهير غربية [٣٨٤] .

ويعود سؤال الهوية الثقافية بكل إشكاليته التاريخية والحضارية ليفرض نفسه بقوة على ساحة الثقافة العربية [٣٨٥]، ومما يزيد من أهمية هذا السؤال العلاقة الجدلية المركبة ما بين ذات تسعى إلى تحقيق نهضتها الذاتية ولم تنجح فى ذلك خاصة فى ظل استعمار حديث يريد أن يفرض عليها الحداثة بالقوة ولمصالحه الذاتية [٣٨٦] ويصاغ كل هذا فى جو من اليأس والتشاؤم [٣٨٧] والأفكار التى تؤكد على نهاية العروبة [٣٨٨] خاصة فى ظل النقد العنيف الذى وجهه البعض لفكرة القومية العربية والقوميين العرب [٣٨٩].

ويلاحظ أن الخطاب المعارض هو المعادل الموضوعى لخطاب تأييد الغزو فإذا كان خطاب التأييد قد أعاد إنتاج خطاب السلطة وتدويره بما يؤكد عليه من خصوصية قطرية مصرية، فإن خطاب المعارضة قد فعّل كل ما يمكنه من معارضة خطاب السلطة والسعى إلى نقدها على كافة المستويات عبر قضية قومية مصيرية كالغزو الأنجلو- أميركى للعراق. ويعتبر الخطاب الصحفى المتابع للغزو

دراسة حالة جيدة للخطاب السياسى والثقافى العربى بعد هزيمة ١٩٦٧ خاصة أن خطاب المعارضة وبصفة خاصة القومى ينطلق منها ويستخدم مفرداتها ويمارس جلداً عنيفاً للذات بناءً على الوعى العربى المهزوم بدءًا من هذا التاريخ، ويمارس الخطاب المعارض كافة مفاعيله النقدية المتاحة له على الساحة العربية فمن نقد التسلط السياسى إلى نقد التشرذم العربى إلى نقد الثقافة والمثقفين.. إلخ كلها قضايا تظهر ما يهيمن على الساحة الثقافية المصرية والعربية، الآن، وإن كان يعترى هذا الخطاب الفجاجة أحياناً والقومية المفرطة فى أحيان أخرى والتناقض الوقتى غير المدروس- نقد التسلط وتأييد النظام العراقى.

ويعتبر الخطاب المؤيد حالة نموذجية هو الآخر لدراسة خطاب السلطة ومدى تفعيل خطابها هى الأخرى بدءًا من الانكفاء القطرى المغلف بنزعة ثقافية انعزالية وانتهاءً بتعمية الشعب عن حقائق واضحة واتخاذ حالة الحرب كغطاء لها -الحالة الاقتصادية- مروراً بلعبة توازنات باتت مكررة ومعروفة.

أما الخطاب الثقافى فما زال مهموماً بلغة النهايات التى أفرزها حدث ١٩٦٧ وحالة التشاؤم والحلم الكابوسى الذى يعيشه المثقف العربى والذى جعله يتقاطع مع التاريخ ليستمد منه المدد والعون

سواء للتأييد وشد الأزر أو للبكاء على الأطلال، وتوارى الخطــاب العلمانى وراء معالجة تؤمن أحياناً بالقوى الغيبية وتستمد المــساعدة من رموز دينية، وتحولت المعالجة أحياناً لما تهدف إليــه العولمــة الأمريكية النيوليبرالية إلى مسألة صراع دينى بين أصولية مسيحية يمينية أمريكية وجهاد إسلامى ولذا امتلأت الصحف فى هذه الأثناء بالتأكيد على هذين البعدين واستفتاء رأى مشايخ الدين فــى الجهــاد بعيداً عن لعبة توازنات شيخ الأزهر والمؤسسة الدينيــة الرســمية، ولأن العلمنة غائبة تماماً امتلأت صحف هذه الفترة بالتأكيــد علــى ثلاثة آليات بالنسبة للدين المسيحى، مخالفة ما يفعله بوش لــصحيح المسيحية، وتأكيد رجال الدين المسيحيين المصريين أحياناً علــى أن الحرب ليست دينية أو صليبية والتأكيد على وحدة عنصرى الأمــة المصرية، وفى بيئة لم تستكمل حداثتها وتهاجم بعولمــة إمبرياليــة رجعية تكثر البرامج الدينية فى الإعلام المرئى وتتوقــف الأغــانى والبرامج الترفيهية طوال مدة الغزو ويكثــر عــدد المــصلين فــى المساجد ويكثر دعاء أئمة المساجد على أمريكا الــصليبية ويتوقــف الزمن العربى عند لحظة الــصدمة الحــضارية الأولــى، لحظــة الجبرتى.

خاتمة

عيوب الذات فى مرآة الآخر:

أحدثت الحملة الفرنسية على مصر فى عام ١٧٩٨ ما يشبه الصدمة الثقافية أو صدمة الحداثة والتى يعرفها أحد الباحثين على النحو التالى:

(حالة شعور بالغموض واللا أمن والتوتر المترتب عن العزلة فى بيئة جديدة وهى تنشأ كلما التقى فرد أو مجموعة أفراد يحملون بنية ثقافية ذات نمط معين بفرد أو مجموعة أفراد ذوى أصول مختلفة) [٣٩٠].

هذه الحالة التى تعبر عن الغموض والتخبط وعدم القدرة على الحسم هى حالة الوعى العربى منذ الحملة الفرنسية وحتى الآن وهو الوعى الذى انقسم تجاه الحملة وبالتالى الغرب إلى التأييد أحياناً والرفض أحياناً، والإعجاب تارة والاندهاش تارة أخرى وهى مواقف لا تختلف عن مواقف الجبرتى المعاصر للحملة الفرنسية وتتكرر كصورة كربونية فى الغزو الأمريكى للعراق مع ارتفاع نبرة الرفض نظرًا لآنية الحدث. والمتابع للخطاب الثقافى الخاص

بالشأن العراقى سيلاحظ أن ما حدث هو أول الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وترادف الشرور بتعبيرات الجبرتى، وسيلاحظ النقد السياسى الداخلى الذى أدى إلى الغزو الأمريكى أو بتعبير الجبرتى وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون، ويعتبر الخطاب التراثى التفوق الغربى من اختلاف الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع.. بل إن وعى الجبرتى بالتفوق الغربى والتدهور الذاتى يعكس رؤية تتجاوز رؤى عديدة موجودة على ساحة الثقافة العربية الآن، وهو ما يثير مسألة حدود النهضة العربية التى حاول العرب القيام بها خلال القرنين الماضيين.

والملاحظ أن الأعمال الفكرية الناقدة للحملة الفرنسية لم تستطع أن تثير حدوداً قاطعة للنهضة تغاير الحملة وما أثارته فى الوعى العربى ولو بالسلب (أى إجهاض محاولات التحديث الذاتية التى قامت بها الطبقة الوسطى المصرية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر).:

وبعيداً عن الصور المأساوية التى شهدتها مصر قبل قدوم الحملة بأعوام قليلة ولعل أشدها وطأة المجاعة التى حدثت فى عام ١٧٩٢ حتى صار المصريين (يأكلون الأطفال) [٣٩١] بتعبير

الجبرتى أو أوضاع الفلاح المصرى بعد ذلك بما يقرب من قرن كامل كما يرصدها صلاح عيسى [٣٩٢] سيقفز الباحث أكثر من قرن آخر ليقرأ تقريراً عن حالة المجتمعات العربية فى الربع الأخير من القرن العشرين فالمجتمعات العربية تعانى من (حالة الأمية التى تبلغ نسبة عالية فى الكثير من أقطارنا، وحالة التدين التى تتمثل فى الغالبية العظمى من جماهيرنا، وحالة التجزئة التى آلت اليها رقعة الأرض العربية، وحالة التعددية الطائفية والمذهبية والعرقية، وحالة التبعية الاقتصادية ومضاعفاتها السياسية والاجتماعية والثقافية، وحالة التاريخ الحضارى المتنوع والمتراكم من عصور البابليين والفينيقيين والفراعنة والبربر إلى العصر المسيحى وعصور الإسلام المتعاقبة والغزوات الأجنبية المتتالية، هذه الحالات وغيرها كثير تتفاعل مع بعضها البعض وتثمر فى النهاية تركيبة عربية مميزة الخصائص التاريخية) [٣٩٣] .

ومن ناحية أخرى فإن أى قارىء لتاريخ الجبرتى سيلاحظ مدى استبداد المماليك وإغارتهم على المحلات والعباد، وسيدرك القارىء من خلال قراءة أى تقرير [٣٩٤] عن أوضاع التعذيب فى أقسام الشرطة فى مصر الآن وبعد قرنين مما أطلق عليه النهضة أو صدمة الحداثة أن الوضع لا يختلف كثيراً عما أورده الجبرتى.

وبالإضافة إلى تـردى الأوضـاع الاقتـصادية والاجتماعيـة والاستبداد السياسى الذى نعيشه حالياً يصبح التساؤل الذى يتنـاول مسألة حدود النهضة فى أى مرحلة من مراحلها ذا صفة مـشروعة خاصة أن معظم الأعمال التى تتنـاول مـسألة النهـضة العربيـة تحصرها فى مراحل متعـددة لعـل أبرزهـا المرحلـة الليبراليـة (١٩٢٣-١٩٥٢) ويلاحظ أن هذه المرحلة تكتـسب أهميتهـا مـن عاملين هامين:

الأول: هو حدوث حالة من تداول السلطة يتـولى فيهـا الوفـد حزب الأغلبية- السلطة من خلال انتخابات حرة أحياناً*

الثانى: هو صدور عدة كتب نهضوية فى هذه الفترة أمثال كتب طه حسين وعلى عبد الرازق.... إلـخ ووجـود تيـارات فكريـة وسياسية متصارعة على أرض مصر وكثيراً ما يكون هذا الصراع من خلال صحافة نابضة بالحيوية والتأثير.

ولكن هذه الصورة ترصد النهضة على المستوى النخبوى بمـا يبقيها داخل إطار المثاقفة بين المثقفين العرب، فرؤوف عباس مثلاً يرصد صورة واقعية شديدة البؤس للأوضاع الاقتصادية فى مـصر خلال حقبتى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين [٣٩٥] .

ويقدم أحد الباحثين تقريراً عن الحالة الاجتماعية للفترة الليبرالية بعد الحرب العالمية الثانية، فالنموذج العصرى الليبرالى (قد أفلس تماماً إذ إن ٠.٤% من كبار الملاك يستحوذون على ٢٤,٢% من الأرض الزراعية وأن عدد المستشفيات الحكومية فى مصر ٢٠ مستشفى، وفى الصعيد كله مدرسة ثانوية واحدة ونسبة الأمية ٩٨% بين الإناث، وحوالى ٨٠% بين الذكور، وعدد عمال التراحيل فى الريف يزيد عن المليونين) [٣٩٦].

وتلك هى الظروف التى أدت إلى انتعاش المنظمات الشيوعية فى مصر الأربعينيات كما يرى رفعت السعيد [٣٩٧] أو الإخوان المسلمين كما يرى رول ماير [٣٩٨]، أى أصحاب الحلول الجذرية ومواقفهم الراديكالية إزاء معادلة الحداثة ما بين الذات / الآخر.

ويلاحظ أن سؤال الحداثة بين قوى تقدمية وأخرى تراثية لم يحسم حتى الآن وإن امتازت المرحلة الناصرية بهدوء نسبى فى الصراع الدائر بين قوى الصراع الأساسية نتيجة للإنجازات التى حققها المشروع القومى بالإضافة إلى الإقصاء السلطوى للإخوان مثلاً خلال هذه الحقبة، ونفس الإقصاء شهدته الحركة اليسارية قبل التحالف مع السلطة الناصرية بعد عام ١٩٦٤، ثم ضرب المشروع القومى فى عام ١٩٦٧ نتيجة لقوى غربية وهو ما يشير إلى جدل

الداخل والخارج. والتحديث وفق متطلبات ذاتية وتحقيق معدلات نمو عالية ثم يقوم الغرب بالتدخل فى هذه التجارب كما حدث مع تجربتى محمد على وعبد الناصر، مما يثير التساؤل حول السمة الدائرية فى التاريخ المصرى الحديث فهناك تجارب تنموية تحقق معدلات تحديث مرتفعة وتتسم بالطابع الشمولى (محمد على- عبد الناصر) وتسير بالدولة تجاه الحداثة ثم يتدخل الغرب لإفشال هذه التجارب (١٨٤٠-١٩٦٧)، وهناك مراحل تتسم بديموقراطية نسبية مع معدلات نمو منخفضة وتبعية سياسية للآخر الغربى مثل المرحلة اللاحقة للاحتلال الإنجليزي لمصر والحقبة التى نعيشها حالياً منذ السبعينيات وحتى الآن.

ومما يزيد الصورة بؤساً أن الغرب العسكرى جاء إلينا هذه المرة -حالة العراق- والمنطقة العربية فى أضعف حالاتها مما فجر إشكالية الداخل والخارج بصورة لم يسبق لها مثيل، حيث سيثار بعد سقوط بغداد مسألة تجديد الخطاب الدينى وستنزع القضية من سياقاتها المحلية ليرى العديد من المثقفين أن هذه المسألة تثار وبقوة الآن وبفعل الضغط الغربى وستتشكك الناس من أى إصلاحات تتخذها السلطة فى أى مجال*، وتثير مسألة استبداد السلطة الداخلية مع ضغوط الخارج مسألة شائكة تفجرت فى الأحداث الأخيرة وهى

مسألة العلاقة بين الاستبداد والاستعمار، وإلــى أى مــدى نتمــسك بالاستبداد لنواجه الاستعمار، وأى طريق نسلكه لنقى أنفسنا التــدخل الأجنبى المستمر خاصة أن الغرب- الولايات المتحدة الأمريكية- لا يريد نظماً ديموقراطية بقدر ما يريد سلطة تابعــة، وهــل نرضــى بالاستبداد التابع؟ أسئلة كثيرة أثارتها الهجمة الأمريكية على المنطقة مؤخراً، والمتابع للخطاب الثقافى الحديث ســيلاحظ أنــه خطــاب يتحاور فى الأساس مع الثقافــة الغربيــة، فحتــى الوســائل التــى تستخدمها للحوار مع الغرب هى من صنع الغرب ذاته [٣٩٩] وهو ما يثير مسألة إشكالية البحث فى النظام الثقافى العربى بدءًا من التأريخ لهذا النظام وحتى القوى الفاعلة فيه ومروراً بأبرز قضاياه.

فبالنسبة للتاريخ لهذا النظام تسود رؤية كابوسية للتاريخ العربى الحديث تبدأ من ١٧٩٨ وتنتهــى بعــام ٢٠٠٣ ومــروراً بهزيمــة ١٩٦٧، فأحد المثقفين العرب فى تعليقه على حرب الخليج الثانيــة فى عام ١٩٩١ يرى أن النظام الثقافى العربى بدأ فى عام ١٧٩٨ ثم احتضر فى عام ١٩٦٧ ثم توفى وانهار تماماً فى حــرب الخلــيج الثانية [٤٠٠] وسيضغط عام ٢٠٠١ على الوعى بتبعاته المتمثلة فــى احتلال أفغانستان ثم العراق فى عام ٢٠٠٣ وهو ما أفرز أدبيــات السقوط والانهيار وجلد الذات الدائم ومفردات النكبة والمحنة.. إلخ.

وإذا انتقل الباحث إلى أبرز إشكاليات وقضايا هذا النظام سيجد أنه يعانى تأرجحاً بين الموروث والوافد، فقد تم وضع الدين فى قلب إشكالية التيارات الناقدة للدين فى أوروبا فى القرن التاسع عشر، فيؤلف الأفغانى رسالة الرد على الدهريين من دون وجود تيارات دهرية قوية فى المجتمع الإسلامى آنذاك، وتثار مسألة العلم والدين فى بدايات القرن العشرين، ثم يفسر الإسلام تفسيراً اشتراكياً خلال الحقبة الناصرية، ثم تفسيراً رأسمالياً بعد ذلك، ثم يتم وضع الذات أمام الحداثة والعولمة ثم وضعها أمام سلسلة المابعديات، ما بعد الحداثة.. ما بعد الصناعة... إلخ. دون مرور مجتمعاتنا أصلاً بالحداثة، وعندما يرتد الغرب ليناقش صراحة مسألة الإسلام نجد سلسلة المؤتمرات والندوات والأدبيات التى تناقش مسألة الإسلام والغرب مما أفرز إشكاليات العلم / الدين، الأصالة/ المعاصرة، التراث/ الحداثة... إلخ وهى الذهنية التى انعكست فى إعادة تدوير قضايا الحجاب والخلافة والنص الدينى فى تسعينيات القرن العشرين مع كم هائل من المصادرات وقضايا التكفير... إلخ مما يشير إلى حالة من عدم القدرة على الحسم أو البت فى أى قضية من هذه القضايا.

وبالنسبة للقوى الفاعلة فى معادلة الحداثة، يلاحظ أن القوى العلمانية تتجه إلى التراث باستمرار للبحث عن القيم الغربية من خلاله، والتأكيد على عقلانية المعتزلة أو ثورية الشيعة أو اشتراكية القرامطة.. إلخ. ما هى إلا حالات من مئات الحالات التى أفرزتها الاجتهادات العلمانية فى التراث داخل الخطاب الثقافى المعاصر وتتأكد هذه النتيجة لدى لويس عوض وسعيد العشماوى فى اعتمادها المطلق على الجبرتى فى النظر لأحداث الحملة الفرنسية.

وعلى العكس من ذلك هناك ولع خفى بالغرب يسود القوى الإسلامية يظهر فى العديد من الحالات مثل التفسير العلمى للقرآن، والاحتفاء بأى مفكر أو مستشرق غربى يقول كلمة حق فى الإسلام والاحتفاء بإسلام جارودى مثال صارخ على ذلك، ويظهر ذلك بوضوح فى اعتماد جلال كشك وليلى عنان ومصطفى عبد الغنى على مصادر غربية على نمط وشهد شاهد من أهلها، وهى إشكالية تثير شرعية الوجود للتيارين داخل المجتمع المصرى والعربى، فالمجتمع العربى مُحمل بزخم تاريخى وتراثى ما زال فاعلاً فى النفوس حتى الآن ويحلم باللحاق بالآخر الغربى المتفوق، فالعلمانى يؤكد على تاريخه وتراثه عبر البحث عن الغرب فى التراث، وأحياناً على إيمانه وإسلامه عندما يصطدم بالقوى الرجعية،

والإسلامي يؤكد على العصرية من خلال اعتراف الآخر المتقدم به فيما يشبه وعياً مقلوباً يسود الذهنية العربية مؤخراً.

وهو ما أثر في النهاية على موقف المثقف الفرد في انتقالاته المتعددة بين تيارات فكرية متباينة حسب تأرجح معادلة الحداثة لصالح الذات مرة أو لصالح الآخر مرات عديدة، وربما ينسحب التناقض على المثقف الواحد عبر مراحل قصيرة بغض النظر عن حقائق التاريخ نتيجة لاستدعاء التراث بما يحتويه من زخم تاريخي ليؤلف المثقف تمشياً مع انفعالات الناس فيرى أن أخصب فترات تاريخنا هى الفترة السابقة على الحملة (حالة مصطفى عبد الغنى) ثم يكتب للخواص أن مصر كانت فارغة من أية نهضة قبل هذه الحملة، دون النظر إلى النهضة وهل تحققت بالفعل، وهل استطاعت أن تنقل هؤلاء العوام نقلات كيفية يستطيعون من خلالها أن يتقدموا إلى الأمام، وأين دور المثقف فى النهوض بهؤلاء العوام؟*

الهـــوامـــش

(١) السيد يس: الفكر العربي والزمن، أين نحن من نهـضة مطلـع القرن، مجلة عالم الفكر، المجلد السادس والعـشرون، ينـاير- يونيـو، الكويت ١٩٩٨، ص٤٢٥.

(٢) بيتر جران: الجذور الإسـلامية للرأسـمالية، مـصر ١٧٦٠-١٨٤٠، ترجمة محروس سليمان، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة ط١ ١٩٩٣.

(٣) صلاح عيسى: الثورة العرابية، المؤسسة العربيـة للدراسـات والنشر، بيروت، ط١ ١٩٧٢، ص٤١.

(٤) طارق البشرى: المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية، دار الشروق القاهرة ١٩٨٨، ص١١.

(٥) السيد يس: مرجع سابق، ص٤٢٦.

(٦) مسعود ضاهر: النهضة العربيـة والنهـضة اليابانيـة، تـشابه المقدمات واختلاف النتائج، عالم المعرفة الكويت ١٩٩٩.

(٧) طارق البشرى: مرجع سابق ص١١.

(٨) محمد جلال كشك: ودخلت الخيـل الأزهـر ص١٢١ القـاهرة ١٩٧١، الهيئة العامة للكتاب.

(٩) لويس عوض: تاريخ الفكر المصرى الحديث جـ٢، دار الهلال، القاهرة ٢٠٠١ ص١٠.

(١٠) نفسه، ص ٩

*يعدد لويس عوض دوائر اهتمام الباحثين بتاريخ مصر الحديث في أعقاب ١٩٦٧ مثل أبحاث: محمد أنيس عن حريق القاهرة، وكتاب صلاح عيسى عن الثورة العرابية، وكتاب فتحي رضوان عن أعلام فترة ما بين الحربين العالميتين.. إلخ (المرجع السابق ص١٠).

(١١) عبد الله شلبى: الدين والصراع الاجتماعى فى مصر (١٩٧٠-١٩٨٥) كتاب الأهالى رقم ٦٧ القاهرة ٢٠٠٠، ص٣٣.

(١٢) نبيل عبد الفتاح: المصحف والسيف مدبولى، القاهرة ١٩٨٤، ص٤٠.

(١٣) صادق جلال العظم: نقد الفكر الدينى، دار الطليعة، بيروت ط٨ ١٩٩٧، ص٩٧.

(١٤) محمد عابد الجابرى: إشكاليات الفكر العربى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٤، ص١٣٣.

(١٥) السيد يوسف: الإخوان المسلمون وجذور التطرف والإرهاب فى مصر، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٩٩، ص٥١.

*تعتبر أعمال خليل عبد الكريم مثل "محمد والصحابة" و "الصحابة والصحابة" و"الصحابة والمجتمع" نصوصا تدور فى هذا الإطار بامتياز، فالكاتب طوال هذه الأعمال يعتبر دخول العرب إلى مصر غزوا وليس فتحا، بالإضافة إلى نقده الشديد للعنصر العربى حضاريا وثقافيا.

*مثال على ذلك الجدل الذى ثار بين قاسم عبده قاسم ومحمد حسين يونس حول هذه المسألة فى مجلة وجهات نظر- العددان ١٤، ١٥، السنة الثانية، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠٠.

(١٦) جلال أمين: نحو تفسير جديد لأزمة الاقتصاد والمجتمع فى مصر، مدبولى، القاهرة ١٩٨٩، ص١٤٥.

(١٧) وليد عبد الناصر: الصدام بين عبد الناصر والشيوعيين رؤية جديدة، مجلة أحوال مصرية، العدد١٢، القاهرة ٢٠٠١، ص١٣٣.

*يؤكد هذه النظرية العديد من الممارسات فى هذا المجال مثل:

-عبد الباسط عبد المعطى "المحرر" الطبقات الاجتماعية ومستقبل مصر، دار ميريت القاهرة ط١ ٢٠٠٢.

-سامية سعيد إمام: من يملك مصر؟ دار مصر المحروسة، القاهرة ط٣، ٢٠٠٣.

(١٨) أحمد بهاء الدين: دور الاستعمار فى التخلف الحضارى، مجلد أزمة التطور الحضارى فى الوطن العربى الكويت، ص١٥٨.

(١٩) حليم بركات: المجتمع العربى المعاصر، بحث استطلاعى اجتماعى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٦، ١٩٩٨، ص٣٩٨.

(٢٠) محمد كامل ضاهر: الصراع بين التيارين الدينى والعلمانى فى الفكر العربى الحديث والمعاصر، دار البيرونى، بيروت، ط١، ١٩٩٤، ص٣٩.

(٢١) المرجع السابق ص١١

(٢٢) أودنيس: الثابت والمتحول، بحث فى الإبداع والاتباع عند العرب جـ٤، دار الساقى، بيروت ط٧ ١٩٩٤ ص٤٦.

(٢٣) المرجع السابق ص٤٧

(٢٤) نفسه ص٢٩

(٢٥) ماهر الشريف: رهانات النهضة فى الفكر العربى، دار المدى، دمشق، ٢٠٠٠، ص١٩.

(٢٦)المرجع السابق ص٣٥

(٢٧) ألبرت حوراني: الفكر العربى فى عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩، ترجمة كريم عزقول، جار نوفل، بيروت ١٩٩٧ ص٥٣

(٢٨) المرجع السابق ص٦٠.

(٢٩) محمد عابد الجابرى: المشروع النهضوى العربى، مراجعة نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط١ ١٩٩٦ ص٢٠.

(٣٠) ماهر الشريف: مرجع سابق ص٣٨ وأيضا ألبرت حورانى مرجع سابق ص٥٢

(٣١) حليم بركات: مرجع سابق ص٤١٠

(٣٢) ألبرت حورانى: مرجع سابق

(٣٣) محمد جابر الأنصارى: الفكر العربى وصراع الأضداد، المؤسسة العربية الحديثة للدراسات والنشر ط١ بيروت ١٩٩٦ ص٧٢.

(٣٤) علي المحافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب فـــى عــصر النهضة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ط٥ ١٩٨٧ ص١١.

(٣٥) لويس عوض: تاريخ الفكـــر المـــصرى الحـديث، الخلفيـــة التاريخية، دار الهلال، القاهرة ١٩٩٤.

(٣٦) نفسه ص١٩

(٣٧) نفسه ص٢٠

(٣٨) نفسه ص٢٠ إلى ص٣٨

(٣٩) نفسه ص٤٤

(٤٠) نفسه ص٥

(٤١) نفسه ص٤

(٤٢) نفسه ص٥٥

(٤٣) نفسه ص٧٣

(٤٤) نفسه ص٧٥

(٤٥) نفسه ص١٠٨

(٤٦) نفسه ص١٠٩

(٤٧) نفسه ص٥٥

(٤٨) نفسه ص٤٧

(٤٩) نفسه ص١٩٥

(٥٠) نفسه ص١٧٦

(٥١) نفسه ص١٩٠

(٥٢) نفسه ص ٨١

(٥٣) نفسه ص١٢٦

(٥٤) نفسه ص١٢٧

(٥٥) نفسه ص١٧٦

(٥٦) محمد سعيد العشماوى: مصر والحملة الفرنسية، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٩.

(٥٧) المرجع السابق ص٣٤

(٥٨) نفسه ص٤١

(٥٩) نفسه ص٥٥

(٦٠) نفسه ص٥٥

*الأقواس الداخلية موجودة فى الأصل.

(٦١) نفسه ص٥٦ إلى ص٦٣

(٦٢) نفسه ص٧٢

(٦٣) نفسه ص٧٣

(٦٤) نفسه ص٧٢

(٦٥) نفسه ص٧٢

*الأقواس الداخلية موجودة فى الأصل.

(٦٦) نفسه ص٨٣

(٦٧) نفسه ص٦٣

(٦٨) نفسه ص ٦٣

(٦٩)نفسه ص١٢٣-١٤٢

(٧٠)طارق البشرى: المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية مرجع سابق ص١١

(٧١)لويس عوض: مرجع سابق ص ١٢٦

(٧٢)المرجع ص١٥٦

(٧٣)نفسه ص١٣٢ إلى ص١٣٨

(٧٤)سعيد العشماوى: مصر والحملة الفرنسية، مرجع سابق ص١٩٢ إلى ١٩٥

*يعتقد الباحث وانطلاقا من سيناريو تشاؤمى أن الدين مازال يشكل الرابطة القومية لأغلبية المصريين وأن هناك أغلبية تحلم بالوحدة الإسلامية القائمة على الدين حتى من البسطاء وعدم التفاف المثقف الباحث عن النهضة وحدودها وشروطها إلى أغلبية الناس يعبر عن حالة من المثاقفة لن تنتهى.

(٧٥)لويس عوض: مرجع سابق ص٦٨

(٧٦) محمد جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧١

(٧٧) المرجع السابق ص١٢

(٧٨)المرجع السابق ص٢٣

(٧٩) محمد جلال كشك: مرجع سابق ص٤٥

(٨٠) نفسه ص٤٦

(٨١)نفسه ص٣٣ إلى ٥٣

(٨٢) نفسه ص٣٥

(٨٣)نفسه ص٨٨

(٨٤)نفسه ص٨٨

(٨٥)نفسه ص٩٢

(٨٦) نفسه ص٩٢

(٨٧)نفسه ص٢٤٩

(٨٨) نفسه ص٢٥٢

(٨٩) نفسه ٢٨٧

(٩٠)نفسه ص٢٢٠

(٩١) نفسه ص٢٢٠

(٩٢) نفسه ص٢٢١

(٩٣) نفسه ص٢٢١

(٩٤) نفسه ص٣٩٥

(٩٥) نفسه ص١٦٥

(٩٦) نفسه ص٣٩٣

(٩٧)نفسه ص٣

(٩٨) مصطفى عبد الغنى: حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ٢٠٠١ ص ٧.

(٩٩) المرجع السابق ص٢٢

(١٠٠)نفسه ص٢٧

(١٠١) نفسه ص٣٣

*يرى جلال كشك أيضا أن الحملة الفرنسية تدخل ضمن الحمـــلات الصليبية وإن كانت تتسم (بقدرة هائلة على النفاق والـــدجل والادعـــاء) كشك: مرجع سابق ص١٤٥.

(١٠٢)مصطفى عبد الغنى: مرجع سابق ص٥٠

(١٠٣)نفسه ص٥٩

(١٠٤) نفسه ص٦٨

(١٠٥)نفسه ص١٢١

(١٠٦) نفسه ص١٢٢ إلى ١٢٩

(١٠٧) نفسه ص١٤٦

(١٠٨) نفسه ص١٥٢

(١٠٩) نفسه ص٤١

(١١٠) نفسه ص٤٢

(١١١) نفسه ص٩٣

(١١٢)نفسه ص٤٢

(١١٣) نفسه ص١٦

(١١٤) نفسه ص١٦

(١١٥) ليلى عنان: الحملة الفرنسية تنوير أم تزويـــر، دار الهـــلال القاهرة ١٩٩٨، ج١، ص١٨

(١١٦) المرجع السابق ص١٨

(١١٧) نفسه السابق ص١٨

(١١٨) ليلى عنان: الحملة الفرنسية فى محكمة التاريخ ج٢، دار الهلال القاهرة ١٩٩٨ ص١١

(١١٩) المرجع السابق ص٢٥٨

*الأقواس الداخلية موجودة فى الأصل.

(١٢٠) المرجع السابق ج١ ص١٦

(١٢١) نفسه ص١٧

(١٢٢) مسعود ضاهر النهضة العربية والنهضة اليابانية، تشابه المقدمات واختلاف النتائج، مرجع سابق

(١٢٣)رءوف عباس: المجتمع اليابانى فى عصر مايجى، دار النشر، ط١، القاهرة ٢٠٠٠

(١٢٤) مصطفى عبد الغنى: تيارات الفكر العربى المعاصر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠١

(١٢٥) المصدر السابق ص١١

(١٢٦) المصدر السابق ص٧١

*كل الأعمال السابق الإشارة إليها على مدى هذه الدراسة حولت الجبرتى إلى نص مفتوح قابل لكل التأويلات والاقتباس والحذف.. إلخ مما جعل ليلى عنان فى كتابها الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير لا تعتمد عليه.

(١٢٧)المرجع السابق ص١٨.

*الأقواس الداخلية تشير إلى اقتباس المؤلف من الجبرتي.

*مع تجاوز نظريات مثل تحلق الجماهير ومداعبتها ودغدغة ما تؤمن به.

(١٢٨) أحمد عبد المعطي حجازى: نعم لفولتير لا لبونابرت، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٩٨

(١٢٩)المرجع السابق ص٤٥

(١٣٠)نفسه ص ١١

(١٣١) نفسه ص٣٤

(١٣٢) نفسه ص٥٣

(١٣٣) نفسه ص١٣٢

(١٣٤)نفسه ص١٣٢

(١٣٥)نفسه ص١٤٧

(١٣٦) نفسه ص١٣١

(١٣٧) نفسه ص١٣٣

(١٣٨) المرجع السابق ص١٥٣

(١٣٩) بيتر جران: الجذور الإسلامية للرأسمالية، مصر ١٧٦٠-١٨٤٠، ترجمة محروس سليمان، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة ١٩٩٣ ط١

(١٤٠)المرجع السابق ص١٥، ١٦

(١٤١) المرجع السابق ص ٥

*يرى أحد الباحثين أن دراسة بيتر جران من الدراسات النقدية الرائدة والتى كان (لها أثر واضح فى إعادة وفهم تاريخ مصر فى العصر العثمانى والعصور اللاحقة، إذ أصبح من الصعب الآن اعتبار الحقبة العثمانية حقبة من الظلام والخمول والتدهور على كافة الأصعدة).. خالد فهمي: كل رجال الباشا محمد على وجيشه وبناء مصر الحديثة، ترجمة شريف يونس، دار الشروق، القاهرة ط ١، ٢٠٠١، ص ٣٤.

(١٤٢) بيتر جران: مرجع سابق ص ٥.

(١٤٣) نفسه ص ٣٨.

(١٤٤) نفسه ص ٤٢.

(١٤٥) نفسه ص ٥٠.

(١٤٦) نفسه ص ٥٤.

(١٤٧)نفسه ص ٦٢

(١٤٨)نفسه ص ٦٢

(١٤٩)نفسه ص ٦٢

(١٥٠)نفسه ص ٤٩

(١٥١)نفسه ص ٤٤

(١٥٢) نفسه ص ٥٩

(١٥٣)نفسه ص ٤٦،٤٧

(١٥٤) نفسه ص ١٤٧

(١٥٥) نفسه ص ٣٦.

(١٥٦) نفسه ص ٢٢

(١٥٧) نفسه ص ٣٨ إلى ص ٦٦

(١٥٨) نفسه ص ٩

(١٥٩) نفسه ص ٧٩ إلى ص ١٠٤

(١٦٠) نفسه ص ٨٣.

(١٦١)نفسه ص ٨٥

(١٦٢) نفسه ص ٨٦

(١٦٣)نفسه ص ١١٧ إلى ص ١٣٨.

(١٦٤) نفسه ص ١١٩

(١٦٥) نفسه ص ١٢

(١٦٦)نفسه ص ١٤٩

(١٦٧) نفسه ص ١٤٩

(١٦٨) رؤوف عباس من تقديمه لكتاب نيلى حنا: ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية ق١٦م – ق ١٨ م، ترجمة رؤوف عباس، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ط١ ٢٠٠٣، ص ١٤.

*الكتاب الأخير صادر باللغة الإنجليزية عن جامعة سيراكيوس بولاية نيويورك– أمريكا.

(١٦٩) نفسه ص ١٣.

(١٧٠) نفسه ص ٣٦.

(١٧١) نفسه ص ٤٤.

(١٧٢) نفسه ص ٣٧.

*وهى رؤية انشطارية حادة تعتقد بموت ثقافة الأطراف فى ظل هيمنة المركز وبالتالى يأتى تأزمها من وضعها للثقافة بين خيارين إما.. أو ولكى تثور على هذا الخيار التقليدى تبتدع لنفسها رؤية تقوم على فاعلية ثقافة الأطراف فى ظل هيمنة المركز، وتحتاج الرؤية التقليدية والرؤية المضادة لها إلى إعادة النظر، فمع إيمان الباحث بهيمنة المركز على الأطراف، فإن ثقافة هذه الأطراف لم تكن فاعلة وحتى الآن وخلال الحقبة التى تدرسها نيلى حنا. ومع ذلك فإن ثقافتها لم تمت ولا يمكن الحديث عن موتها أو تصور ذلك. وهل يمكن الحديث عن موت الثقافة العربية فى ظل هيمنة أمريكية لم تشهدها من قبل؟ وفى المقابل هل يمكن الحديث عن أى فاعلية للثقافة العربية فى الوقت الحالى؟

(١٧٣) خالد فهمى: حين كانت مصر تبحث عن الحداثة، مقال منشور بمجلة وجهات نظر العدد الرابع والستون، القاهرة مايو ٢٠٠٤.

(١٧٤) نيلى حنا: مرجع سابق ص ٤٨.

(١٧٥)نفسه ص ٧١.

(١٧٦) نفسه ص ٧٩.

(١٧٧) نفسه ص ٦١.

(١٧٨)نفسه ص ٨٠.

*يعطى الباحث مجرد أمثلة من عشرات غيرها يمتلىء بها الكتاب حول الرغبة فى الخروج على النموذج الغربى مما يؤدى أحياناً إلى التناقض والوقوع فى أسر هذا النموذج وتبعيته مرة أخرى.

(١٧٩)نفسه ص ٤٥.

(١٨٠) نفسه ص ١٠٠.

(١٨١)نفسه ص ٩٤

(١٨٢) نفسه ص ١٣٣.

(١٨٣) نفسه ص ١٣٦.

(١٨٤)نفسه ص١٤٠.

(١٨٥) نفسه ص ١٤٢.

(١٨٦)نفسه ص ١٥٢.

(١٨٧) نفسه ص ١١٨.

(١٨٨) نفسه ص ١١٣.

(١٨٩)نفسه ص ١٨٨.

(١٩٠) نفسه ص من ١٨٨ إلى ص ٢٠٦.

(١٩١) نفسه ص ٣٤

(١٩٢) نفسه ص ٨٣.

(١٩٣) نفسه ص ٣٢.

(١٩٤) نفسه ص ٢٢١.

*المفارقة هنا أن النتيجة الوحيدة التى أحدثت تحولاً شبه جذرى من قبل ثقافة الطبقة الوسطى إزاء السلطة الحاكمة جاءت من قبل علماء الأزهر التى تنتقد المؤلفة ثقافتهم، حيث استطاعوا بقيادة عمر مكرم تثبيت محمد على فى حكم مصر. ويرى البعض أن هذه الخطوة جاءت نتيجة التأثر بالحملة الفرنسية وأفكارها فى مصر.

(١٩٥) نفسه ص ٧٢.

(١٩٦) نفسه ص ٩٤.

(١٩٧)نفسه ص ٧٣.

*والسؤال ماذا كان يحدث لو استمر نظام الكتاتيب معمولاً به إلى يومنا هذا فى القاهرة والمدن الكبرى؟ وتأتى تلك النظرة من أستاذة تاريخ قاهرية تُدرس فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة وتكتب مؤلفاتها باللغة الإنجليزية، وفى عام ١٩٨٠ دخل الباحث إلى كُتاب فى مدينة المحلة الكبرى بزخمها العمالى والثقافى. وعلى الرغم من تطور الكُتاب كثيراً عن الصورة الهزلية التى قدمها طه حسين فى (الأيام) فإن المواد التعليمية فى الكُتاب اقتصرت فى عام ١٩٨٠ على حفظ قصار السور القرآنية ومبادىء اللغة العربية والعقاب كان يتم عبر الفلقة أو الضرب على الأيدى بخشبة مملوءة بالمسامير.

*يلاحظ انطلاق نيلى حنا من مقولات غربية واعتماد الدراسة فى معظمها وفى أفكارها الأساسية على المصادر الغربية.

(١٩٨)يمكن الرجوع بخصوص هذه النقطة إلى:

جلال أمين: عصر التشهير بالعرب والمسلمين نحن والعالم بعج ١١ سبتمبر ٢٠٠١، دار الشروق، القاهرة ط١ ٢٠٠٤.

*عام ١٧٩٨ ميلادية وهو عام قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر.

(١٩٩) عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ص ٥، القاهرة ٢٠٠٣.

(٢٠٠) جاك دريدا: ما الذى حدث فى حدث ١١ سبتمبر؟ ترجمة صفاء فتحى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ط١ ٢٠٠٣، ص ٧٠.

*يقدر أحد الباحثين عدد الندوات والمؤتمرات التى عقدت لبحث ظاهرة العولمة بـ (١٥٠٠) ندوة ومؤتمر: نبيل على، الثقافة العربية وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والآداب، الكويت يناير ٢٠٠١، ص ٢٦.

(٢٠١) السيد يسن: العولمة والطريق الثالث، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٩٩.

(٢٠٢) جلال أمين: العولمة، دار المعارف ط٢ ١٩٩٨، ص ٩.

(٢٠٣) عادل حسين: العولمة وصراعنا مع الغرب، ضمن كتاب الإسلام والعولمة، الدار القومية العربية، القاهرة ١٩٩٩، ص ٤٠.

(٢٠٤)وليد عبد الناصر: التيارات الإسلامية فى مصر ومواقفها تجاه الخارج من النكسة إلى المنصة (١٩٦٧-١٩٨١)، دار الشروق، القاهرة ٢٠٠١، ص ٧٥.

(٢٠٥)غالى شكرى: فى البحث عن علمانية جديدة، الهيئة العامة المصرية للكتاب،القاهرة ١٩٩٢، ص ١٥٣.

(٢٠٦) محمد عابد الجابرى: قضايا فى الفكر العربى المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ط١، سنة ١٩٩٧، ص ١٠٣.

(٢٠٧) برتران بادى:- الدولتان، السلطة والمجتمع فى الغرب وفى بلاد الإسلام، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع القاهرة- باريس ط١ ١٩٩٢، ص ٨.

(٢٠٨) نفس المصدر ص ٨.

(٢٠٩) نفس المصدر ص ٨.

(٢١٠) المرجع السابق، ص ٣٧.

(٢١١)برنارد لويس:- أين الخطأ؟ التأثير الغربى واستجابة المسلمين، ترجمة محمد عنانى، دار سطور، القاهرة ط١ ٢٠٠٣، ص ١٥٣.

(٢١٢) رؤوف عباس من مقدمة الكتاب السابق ص ٩.

(٢١٣) المرجع السابق ص ٧ إلى ص ١٠.

(٢١٤) المرجع نفسه ص ٩٨.

(٢١٥) نفسه ص ٢٠٢.

(٢١٦) نفسه ص ١١٢.

(٢١٧) المرجع السابق، ص ٢٥٠.

(٢١٨) حسن نافعة: المثقف العربى والأمير الأمريكى، فؤاد عجمى نموذجاً من خلال مناقشة حسن نافعة لكتاب العراق ومستقبل العرب لفؤاد عجمى، مقال منشور بمجلة وجهات نظر العدد الخمسون، القاهرة مارس ٢٠٠٣.

(٢١٩)المرجع السابق.

(٢٢٠)فهمى هويدى: المفترون، خطاب التطرف العلمانى فى الميزان، دار الشروق ط٢، ١٩٩٩، ص ٢٤٧.

(٢٢١)طارق البشرى: الملامح العامة للفكر السياسى الإسلامى فى التاريخ المعاصر، دار الشروق، القاهرة ط١، ١٩٩٦، ص ٤٤.

(٢٢٢) جلال أمين: التنوير الزائف، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٩، ص ٤٧.

(٢٢٣) المرجع السابق ص ٥١.

(٢٢٤) محمد سليم العوا: الحق فى التعبير، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٨، ص ٢٧-٣١.

(٢٢٥) محمد سليم العوا: فى النظام السياسى للدولة الإسلامية، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٩، ص ١٢٦.

(٢٢٦)فهمى هويدى: إحقاق الحق، دار الشروق، القاهرة ١٩٩٤، ص ٧٣.

(٢٢٧)فهمى هويدى، المفترون، مصدر سابق ص ١٤١.

لمزيد من التفاصيل حول آراء من يسمون بالإسلاميين المعتـدلين أو المستقلين يمكن الرجوع إلى كتاب محمد حـافظ ديـاب: "الإسـلاميون المستقلون، الهوية والسؤال"، دار ميريت، القاهرة ط١ ٢٠٠١.

وكذلك تقرير الحالة الدينية، الجزء الثانى، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة ١٩٩٨

(٢٢٨)سيد قطب:- معالم فى الطريق، دار الشروق، القـاهرة سـنة ١٩٩٣، ص "١٧".

*يشير عدد طبعات الكتاب "١٧" طبعة حتـى سـنة ١٩٩٣ وهـى الطبعات الشرعية فقط كما تذكر دار الشروق فى مفتتح الكتاب مدى تأثير هذا الكتاب وأفكاره بالنسبة للتيار الإسلامى بـصفة خاصـة والبـاحثين والمثقفين بصفة عامة من خلال تبنى هذه الأفكار أو تحليلها ونقدها مـن ناحية أخرى.

(٢٢٩) المرجع السابق ص ١١٦.

(٢٣٠) محمد قطب:- جاهلية القرن العشرين، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٩، ص ٢٥ إلى ٢٧.

(٢٣١)المرجع السابق ص ٣٣.

(٢٣٢) صادق جلال العظمة: الأصولية الإسلامية، ترجمة عـاطف أحمد، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنـسان، القـاهرة ١٩٩٧ م، ص ٣٠.

(٢٣٣) هالة مصطفي:- الدولة والحركات الإسلامية المعارضة بين المهادنة والعنف، دار المحروسة، القاهرة ١٩٩٦، ٢٥٢-٢٦٦.

(٢٣٤) جريدة القاهرة: أعداد شهر نوفمبر ٢٠٠٣

(٢٣٥) نبيل عبد الفتاح: الوجه والقناع الحركة الإسلامية والعنف والتطبيع، دار سيشات، القاهرة ط١ ١٩٩٥، ص ٣٨.

(٢٣٦)عبد الرحيم على: المخاطرة فى صفقة الحكومة وجماعات العنف، ميريت للنشر، القاهرة ط١ ٢٠٠٠.

(٢٣٧)المرجع السابق ص ٢٢.

*شهدت أعوام ٩٢،٩٣،٩٤،١٩٩٥ قيام الهيئة العامة المصرية للكتاب بطرح سلسلتين فكريتين لمواجهة أفكار التطرف الأولى بعنوان المواجهة وقدمت أعمالاً تقوم بنقد أفكار هذه الجماعات بصورة مباشرة، والثانية بعنوان التنوير وقدمت أعمال سلامة موسى والكواكبى وقاسم أمين...إلخ.

(٢٣٨) هويدا عدلى: التسامح السياسى، المقومات الثقافية للمجتمع المدنى فى مصر، مركز القاهرة لحقوق الإنسان، القاهرة ٢٠٠٠، ص ١٩٢.

(٢٣٩) عاصم الدسوقى: الخوف من المطبعة، مقال منشور بمجلة إبداع، القاهرة يونية ١٩٩٩.

(٢٤٠)طلعت الشايب: الفتنة نائمة لكى ......، مقال بمجلة أدب ونقد، القاهرة مارس ٢٠٠١.

(٢٤١) عبد العزيز حمودة: المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ٢٠٠١، ص ٢٠.

(٢٤٢) حسن حنفى: الدين والتنمية القومية، دار مدبولى، القاهرة ١٩٨٩، ص ١٢.

(٢٤٣) تقرير الحالة الدينية ص٢، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، الأهرام، القاهرة ١٩٩٨، ص ٥٨،٥٩.

(٢٤٤) فتحى سيد فرج: الثقافة الوافدة مع العمالة العائدة، دراسة منشورة فى كتاب قراءة فى أحوال الوطن، تحرير حمد أو كليلة، مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ١٩٩٩.

(٢٤٥) محمود عبد الفضيل: التشكيلات الاجتماعية والتكوينات الطبقية فى الوطن العربى، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ط١، ١٩٨٨، ص ١٦٨.

(٢٤٦) علاء قاعود: نحو إصلاح علوم الدين، مركز القاهرة لحقوق الإنسان،القاهرة ١٩٩٩، ص ٩٢-١٠٢.

(٢٤٧) تقرير الحالة الدينية مرجع سابق ص ٣٩ إلى ٤١.

*على الرغم من اشتغال نصر أبو زيد على قضية التأويل عبر المناهج الألسنية الحديثة (انظر مفهوم النص دراسة فى علوم القرآن، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء ط ١٩٩٨) إلا أن الدفاع الإعلامى عنه أو حتى دفاع هيئة المحامين التى قامت بالدفاع عنه أمام المحكمة لم تتطرق إلى التأكيد على حرية التعبير أو البحث العلمى مهما كان مداها

واقتصر الدفاع على تأكيد إسلام الرجل وسماحة الإسلام واحتواء التراث الإسلامى على حالات شطط قامت نصر أبو زيد (مما يؤكد الإدانة الضمنية) والاعتماد على تخريجات فقهية تقليدية للدفاع عنه فالمثقف عندما يدافع عن إسلامه بشتى السبل يؤكد ضمناً خروجه عنه أولا، وعندما يتجه إلى التراث لتدعيم حججه يؤهل المجتمع لسيادة الذهنية التراثية والتى لا تقبل فى أشد حالاتها تسامحاً وجود اجتهاد خارج الفضاءات الدينية المختلفة لمزيد من التفاصيل:

(انظر مجلة القاهرة، عدد خاص عن نصر أبو زيد، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٩٥، كذلك نصر حامد أبو زيد (جمع وتقديم):- القول المفيد فى قضية أبو زيد، مجموعة مقالات للمدافعين عنه، مكتبة مدبولى، القاهرة ط١ ١٩٩٦.

(٢٤٨) رفعت السعيد/ التيارات السياسية فى مصر، فصل عن التأسلم السياسى وروافده، شركة الأمل، القاهرة ص١ ٢٠٠١، كذلك العلمانية بين الإسلام والتأسلم كتاب الأهالى رقم ٦٥، القاهرة ٢٠٠٠.

(٢٤٩) على حرب: الإفتاء الأصولية والشعائر التقدمية، مصائر المشروع الثقافى العربى، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء ط١ ٢٠٠١، ص ١٩٠.

(٢٥٠) جاك دريدا: ما الذى حدث فى أحداث ١١ سبتمبر؟ مرجع سابق، ص ١٠٥.

(٢٥١) المرجع السابق ص ١١٩.

(٢٥٢) السيد يسن: الحرب الكونية الثالثة عاصفة سبتمبر والسلام العالمى، الهيئة العامة المصرية للكتاب القاهرة ٢٠٠٣.

(٢٥٣) ديفيد بلانكس: رؤية أمريكى له عائلة عربية، أمريكيون فقط دراسة منشورة بمجلة وجهات نظر العدد الواحد والخمسون، القاهرة إبريل ٢٠٠٣.

(٢٥٤) المصدر نفسه.

*أنظر على سبيل المثال: هنرى لورانس:- الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر، الاستشراق المتأسلم فى فرنسا ١٦٩٨-١٧٩٨، ترجمة بشير السباعى، دار شرقيات، القاهرة ط١ ١٩٩٩.

(٢٥٥)حسن حنفى:- هموم الفكر والوطن ط١، دار المعرفة الجامعية، القاهرة ١٩٩٧، ص ٤٦٧.

(٢٥٦) محمد الميلى:- الاندماج أو الأنعتاق- أوروبا والإمبراطورية الأمريكية الجديدة، مقال منشور بمجلة وجهات نظر، العدد الخمسون، القاهرة ٢٠٠٣.

(٢٥٧) حسن حنفى: فيشته.. نيلسون المقاومة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٤٩٠.

(٢٥٨)عبد الرحمن الجبرتى: مرجع سابق ص ٤.

(٢٥٩)المرجع السابق ص ٤

(٢٦٠) نفسه ص ٥.

(٢٦١)طاهر عبد الحكيم: الشخصية الوطنية المصرية، قراءة جديدة لتاريخ مصر، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة ط١ ١٩٨٦، ص ١١٢-١١٣.

*يلاحظ احتفال العراقيون بعيد الفطر الأول بعد الاحتلال فى يومين مختلفين يوم للشيعة ويوم للسنة فى إشارة هامة إلى ما يعانيه هذا البلد من تفتت ثقافى ومذهبى.

(٢٦٢) عبد الرحمن الجبرتى/ مرجع سابق ص ٢.

(٢٦٣) طالب البغدادى: من أحرق بغداد؟ التراث... الذاكرة... التاريخ مجلة وجهات نظر، العدد الثانى والخمسون، القاهرة مايو ٢٠٠٣.

(٢٦٤) مصطفى عبد الغنى: حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية، مصدر سابق، ص ٩٣.

(٢٦٥) جاك دريدا: ما الذى حدث فى حدث ١١ سبتمبر؟ مرجع سابق، ص ١١٩.

(٢٦٦) ليلى إبراهيم أبو المجد: السبى البابلى، دراسة تاريخية فى استراتيجيات الغزو، مجلة وجهات نظر العدد الثالث والخمسون، القاهرة يونيو ٢٠٠٣.

(٢٦٧)تقرير لنرمين محب، منشور بجريدة الأسبوع القاهرية ٣١ مارس ٢٠٠٣.

(٢٦٨) المرجع السابق.

(٢٦٩) نفسه.

(٢٧٠)نفسه.

(٢٧١)عبد الرحمن الجبرتى: مرجع سابق ص ١١.

(٢٧٢)جريدة الأهرام، الصفحة الأولى بتاريخ ٢٠٠٣/٣/٢٠.

(٢٧٣)سمير محمود والى: الأسلحة الكهرومغناطيسية.. الدمار دون ألم، مجلة وجهات نظر، العدد الخمسون، القاهرة مارس ٢٠٠٣.

(٢٧٤) عبد الرحمن الجبرتى، مرجع سابق، ص ٦٠.

(٢٧٥) طارق البشرى: العرب فى مواجهة العدوان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٣، ص ٢٥٥.

(٢٧٦) مأمون فندى: ضحايا الحداثة، أمريكا والعرب بعد ١١سبتمبر، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ٢٠٠٣، ص ٢٩٠.

(٢٧٧) المرجع السابق: ص ٢٩١.

(٢٧٨) حسن نافعة المثقف العربى والأمير الأمريكى، فؤاد عجمى نموذجاً، مجلة وجهات نظر، العدد الخمسون، القاهرة مارس ٢٠٠٣.

(٢٧٩)رضا هلال: الحلم المصرى، أى مصر نريدها، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ٢٠٠٢، ص ١٥٦،١٥٧.

(٢٨٠) تعليق حسن نافعة على فؤاد عجمى، مرجع سابق.

(٢٨١) رضا هلال:- مرجع سابق ص ١٧٣.

(٢٨٢) مأمون فندى: مرجع سابق ص ٢٩٤.

(٢٨٣)رضا هلال: مرجع سابق ص ٥٨.

(٢٨٤)المرجع السابق ص ٨٦

(٢٨٥) نفسه ص ١٣٣.

(٢٨٦) رضا هلال: الحرب الأمريكية العالمية، قيامة المحافظين الجدد واليمين الدينى، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة ٢٠٠٣، ص ١٩٧،١٩٨،١٩٩.

*وهى حجج الإدارة الأمريكية وتكررت أيضاً فى الإعلام العربى.

(٢٨٧) الأهرام ٢٠ مارس ٢٠٠٣.

(٢٨٨) الأهرام ٢٠ مارس ٢٠٠٣.

(٢٨٩) الأهرام ٢١ مارس ٢٠٠٣.

(٢٩٠)الأهرام ٢١ مارس ٢٠٠٣.

*لا يمثل وضع تعبير مثل حرية العراق بين مزدوجتين أى استهجان من جانب الصحيفة إذ هو اسم العملية التى أطلقتها الولايات المتحدة على هذه الحرب كما أشارت الصحيفة.

(٢٩١) الأهرام ٢٦ مارس ٢٠٠٣.

(٢٩٢)الأهرام ٢٧ مارس ٢٠٠٣.

(٢٩٣) التقرير الاستراتيجى العربى ٢٠٠٢-٢٠٠٣، مؤسسة الأهرام، القاهرة ط١، يونيو ٢٠٠٣، ص ٩٦ إلى ١٠٠.

(٢٩٤)المرجع السابق ص ٩٨.

(٢٩٥) سمير رجب: خطوط فاصلة بعنوان، فوضى.. ما قبل الحرب! جريدة الجمهورية ٢٠ مارس ٢٠٠٣.

(٢٩٦) سمير رجب: المرجع السابق.

(٢٩٧) المرجع السابق.

(٢٩٨)إبراهيم نافع: حقائق: الأهرام ٢٢ مارس ٢٠٠٣.

(٢٩٩)الأهرام ٢٢ مارس ٢٠٠٣.

(٣٠٠) عبد الرحمن عقل: الناس والاقتصاد، عمود منشور بالاهرام ٢٠ مارس ٢٠٠٣.

(٣٠١) الأهرام ٢٢ مارس ٢٠٠٣

(٣٠٢) الأهرام ٢٠ مارس ٢٠٠٣.

(٣٠٣) تقرير مصطفى سليمان: وقائع المؤتمر الفضيحة حول العدوان على العراق، يا فضيلة الإمام لتقل خيراً أو لتصمت، جريدة الأسبوع القاهرية ١٤ أبريل ٢٠٠٣.

(٣٠٤) التقرير الاستراتيجي العربى، مرجع سابق ص ٩٧.

(٣٠٥) محمد عبد المنعم: مبارك فى معرض الكتاب، أسلوب خطاب واقعى لا يُشبع العنتريات، مجلة روز اليوسف القاهرية، ٢٥: ٣١ يناير ٢٠٠٣.

(٣٠٦) روز اليوسف ٢٤:٣٠ مايو ٢٠٠٣.

(٣٠٧) كرم جبر: من حق الناس أن يعرفوا الحقائق كاملة، فى احتفالية المجلة بحوار الرئيس مع مثقفى مصر فى معرض الكتاب، روز اليوسف ٢٥:٣١ يناير ٢٠٠٣.

(٣٠٨) وائل الإبراشى: مقال بنفس العنوان، المرجع السابق.

(٣٠٩)روز اليوسف : المرجع السابق.

(٣١٠) محمد عبد المنعم: افتتاحية المجلـــة، روز اليوســف ١٥:١٢ فبراير ٢٠٠٣.

(٣١١) كرم جبر: الإطاحة بصدام حسين هل هـــى البــديل الوحيــد لتجنب الحرب، مقال بمجلة روز اليوسف، المصدر السابق.

(٣١٢) روز اليوسف ٢٨:٢٢ مارس ٢٠٠٣.

(٣١٣)عبد الله كمال: المصدر السابق.

(٣١٤)روز اليوسف ١٨:١٢ أبريل ٢٠٠٣.

(٣١٥)المرجع السابق.

(٣١٦) محمد عبد المنعم: بعد النكبة والنكسة والكارثة غداً يوم القيام، ٢٥:١٩ أبريل ٢٠٠٣.

(٣١٧) كرم جبر واحد اثنين.. مصر فين؟ المرجع السابق.

(٣١٨) عبد الله كمال: أقلام تحلب الثور! المرجع السابق، ويقــصد الكاتب بالثور الجيش المصرى.

(٣١٩)روز اليوسف ٣٠:٢٤ مايو ٢٠٠٣.

(٣٢٠) المرجع السابق

(٣٢١) حمادة حسين: حوار مع محسن لطفى السيد بعنــوان: ثقافــة الصحراء أنست المصريين مصريتهم، المرجع السابق.

(٣٢٢) علوانى مغيب: المصريون أمة الديمقراطية الدينية، المرجــع السابق.

*دأبت المجلة على نشر صفحة مصريات للدكتور وسيم السيسى يتناول فيها ما يخص الشأن المصرى القطرى.

(٣٢٣) المرجع السابق

(٣٢٤) أنور الجندى: المعارك الأدبية، الأنجلو المصرية، القاهرة د.ت، ص ١٧.

(٣٢٥) خليل عبد الكريم: النص المؤسسى ومجتمعه ط١، دار مصر المحروسة، القاهرة ط١، ٢٠٠٢، ص ٢١٨.

(٣٢٦) سيد القمنى: شرعية العنف وخطابنا المراوغ، دراسة منشورة، بمجلة أدب ونقد العدد ٢٠١، مايو ٢٠٠٢

(٣٢٧) محمد حسين مؤنس: بل أخذت عنوة وكان أهلها عبيداً، مقال منشور بمجلة وجهات نظر، العدد ١٥، القاهرة ٢٠٠٠.

(٣٢٨) جريدة العربى ٩ مارس ٢٠٠٣.

(٣٢٩) عبد الحليم قنديل: عمود لوجه الوطن العربى ٢ مارس ٢٠٠٣.

(٣٣٠) جريدة العربى ٢ مارس ٢٠٠٣.

(٣٣١) العربى ٢ مارس ٢٠٠٣.

*تتردد هذه الأفكار فى معظم المواد الصحفية فى العدد الواحد حيث كان يخصص العدد بأكمله للحرب المتوقعة.

(٣٣٢)أكرم القصاص عمود أول السطر العربى ٢ مارس ٢٠٠٣.

(٣٣٣) جريدة الأسبوع ٣ مارس ٢٠٠٣.

(٣٣٤) مصطفى بكرى: عمود بالعقل بعنوان "الفرصـــة الأخيـــرة" الأسبوع.
(٣٣٥) الأسبوع ٣ مارس ٢٠٠٣.
(٣٣٦) الأسبوع ١٠ مارس ٢٠٠٣.
(٣٣٧) الأسبوع ٣ مارس ٢٠٠٣.
(٣٣٨) العربى ١٦ مارس ٢٠٠٣.
(٣٣٩)الأسبوع ٣ مارس ٢٠٠٣.
(٣٤٠)المرجع السابق.
(٣٤١) جريدة العربى ٣٠ مارس ٢٠٠٣.
(٣٤٢) المرجع السابق
(٣٤٣) نفسه
(٣٤٤) الأسبوع ٢٤ مارس ٢٠٠٣.
(٣٤٥)المرجع السابق
(٣٤٦)المرجع السابق
(٣٤٧)الأسبوع ٣١ مارس ٢٠٠٣
(٣٤٨) المرجع السابق
(٣٤٩) العربى ٦ إبريل ٢٠٠٣.
(٣٥٠) العربى المرجع السابق.
(٣٥١)محمد عودة: العربى، المصدر السابق.
(٣٥٢) المرجع السابق.

(٣٥٣) الأسبوع ٢٨ أبريل ٢٠٠٣.

(٣٥٤) سيد نصار عمود قضايا عربية بعنوان حيثيات طرد الكويت، الأسبوع ٢١ أبريل ٢٠٠٣.

(٣٥٥)محمود بكرى: تقرير، الأسبوع ٢٨ أبريل ٢٠٠٣،.

(٣٥٦) الأسبوع ٢٤ مارس ٢٠٠٣.

*ويلاحظ توارى هذا الخطاب الآن فى مرحلـة تفعيـل المقاومـة الحقيقية بعد انتهاء الغزو.

(٣٥٧)روز اليوسف : ٢٦ أبريل: ٢ مايو ٢٠٠٣.

(٣٥٨)المرجع السابق

(٣٥٩)الأسبوع ٢٤ مارس ٢٠٠٣.

(٣٦٠)مصطفى بكرى: بالفعل، المرجع السابق

(٣٦١) نفسه

(٣٦٢) نفسه

(٣٦٣) الأسبوع ٢٤ مارس ٢٠٠٣

(٣٦٤) المرجع السابق

*أعطى الباحث مجرد أمثلة حيث إن هناك موضوعات تراثية مـن الكثرة والتنوع والدلالات ما يجعلها تحتاج لدراسة منفردة.

(٣٦٥)قاسم عبد قاسم: الفرنجة يقصفون بلد صلاح الدين، صـلاح الدين الأيوبى هل صنع عصره، أم صنعه عصره؟!، مقال منشور بمجلة الهلال القاهرة أبريل ٢٠٠٣.

(٣٦٦)عطية القوصى: العراق من الحضارات القديمة حتى حضارة العصر العباسى مجلة الهلال مايو ٢٠٠٣.

(٣٦٧) المرجع السابق.

(٣٦٨) المرجع السابق

(٣٦٩) يوسف زيدان: سقوط بغداد مقال منشور بالهلال مايو ٢٠٠٣

(٣٧٠)فاروق عبد القادر: تراجيديا كربلاء مقال منشور بمجلة وجهات نظر العدد الثالث والخمسون يونيو ٢٠٠٣.

(٣٧١)الأهرام الاقتصادى ٢١ أبريل ٢٠٠٣.

(٣٧٢)جريدة العربى، ١٣ أبريل ٢٠٠٣.

(٣٧٣) العربى المرجع السابق.

(٣٧٤) محمد عبد الله بدر: فى تفسير لغز صدام، جريدة العربى المرجع السابق.

(٣٧٥) جريدة الأسبوع ١٤ أبريل ٢٠٠٣.

(٣٧٦) جريدة الأسبوع ٢١ أبريل ٢٠٠٣

(٣٧٧)مصطفى بكرى : جريدة الأسبوع ٢٨ أبريل ٢٠٠٣.

(٣٧٨) جريدة العربى ٢٣ مارس ٢٠٠٣.

(٣٧٩)جلال أمين: الإعلام والاعتداء على العراق، ثورة معلومات أم تلويث للمخ، مقال منشور بمجلة الهلال، مايو ٢٠٠٣.

(٣٨٠) الأسبوع ١٤ أبريل ٢٠٠٣

(٣٨١) الأسبوع ٢١ أبريل ٢٠٠٣.

(٣٨٢) جريدة العربى ١٣ أبريل ٢٠٠٣

(٣٨٣) صلاح قنصوة: آن الأوان للنزول من السندرة إلى المطبخ، مقال منشور بمجلة الهلال يوليو ٢٠٠٣.

(٣٨٤)صلاح قنصوة: المرجع السابق.

(٣٨٥)مراد وهبة: إشكالية الهوية الثقافية، الهلال، المرجع السابق.

(٣٨٦) جلال أمين: الأمريكيون ونظامنا التعليمى، الهلال المرجع السابق.

(٣٨٧) أحمد أبو زيد: أما لليأس العربى من نهاية؟!، الهلال المرجع السابق؟

(٣٨٨) أحمد يوسف أحمد: نهاية العروبة، مقال منشور بمجلة الهلال، عدد أغسطس ٢٠٠٣.

(٣٨٩)صلاح عيسى: الحداد يليق بالقوميين العرب، مقال منشور بجريدة القاهرة بتاريخ ٢٢ أبريل ٢٠٠٣.

(٣٩٠) نور الدين بو مهرة: المؤسسات الصناعية والصدمة الثقافية، دراسة منشورة بمجلة قضايا فكرية، الكتاب التاسع عشر والعشرون بعنوان "الفكر العربى بين العولمة والحداثة وما بعد الحداثة، قضايا فكرية للنشر والتوزيع، القاهرة، أكتوبر ١٩٩٩.

(٣٩١)عبد الرحمن الجبرتى: مصدر سابق، الهيئة العامة المصرية للكتاب القاهرة ٢٠٠٣، ص ٦٩.

(٣٩٢) صلاح عيسى، الثورة العرابية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط١ ١٩٧٢، ص ١٤٤.

(٣٩٣)غالي شكرى: المثقفون والسلطة فى مصر، أخبار اليوم، القاهرة ١٩٩١، ص ٢٥.

(٣٩٤) تقرير عن التعذيب فى مصر، حقائق وشهادات، مركز النديم للعلاج والتأهيل النفسى لضحايا العنف القاهرة ٢٠٠٢.

*تولى الوفد الحكم فى الفترة من ١٩٣٦ إلى ١٩٥٢ مدة "٥٢" شهراً فقط (رول ماير: البحث عن الحداثة، ترجمة شريف يونس، ميريت للنشر، القاهرة ط١ ٢٠٠٠)، ص ٥٥.

(٣٩٥) رؤوف عباس: جماعة النهضة القومية، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة ط ١٩٨٦، ص ١١-٣٠.

(٣٩٦) محمود محيى الدين: اشتراكية الدولة والنمو الاقتصادى، نقلاً عن رضا هلال: تحديث التخلف، سينا للنشر، القاهرة ط١ ١٩٩٣، ص ١١٩.

(٣٩٧)رفعت السعيد: تاريخ المنظمات اليسارية المصرية ١٩٤٠-١٩٥٠، دار الثقافة الجديدة ط١ القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٣.

(٣٩٨) رول ماير:- مرجع سابق ص ٦١.

*قوبلت إجراءات عديدة شهدتها مصر مؤخراً بالسخرية اللاذعة من قبل الشارع المصرى كاتخاذ عيد الميلاد ٧ يناير أجازه رسمية لكل المصريين وتردد وسؤال لماذا الآن بالذات؟ وكالإجراءات التى قامت بها

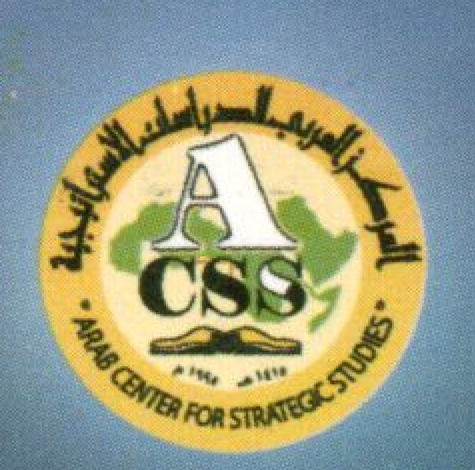
السلطة إزاء قضايا المرأة مثل الخلع والختان.. ومحكمة الأسـرة وهـي إجراءات وإن بدت تحديثية إلا أنها قوبلت من جانب المواطنين بالـشك والسخرية، والمتابع لصحف المعارضة وتعليقها علـى مـسألة توريـث السلطة في مصر سيجد إلى أى مدى تتفاعل ظروف الداخل مـع جـدل الخارج، ما بين سلطة تستند إلى ميراث طويل من الاستبداد وتابعه تبعية شبه مطلقة للغرب، وقوى أجنبية تدعى الديموقراطية وتسعى إلى التغيير وهو ما يجعل مسألة التوريث هذه معلقة لم تقطع فيهـا الـسلطة بـرأى انتظاراً للرأى الغربى ومدى تفاعل العلاقة بينها وبين الخارج.

(٣٩٩)على حرب: أصنام النظرية وأطياف الحرية، نقد بورد يـو وتشومسكى، المركز الثقافى العربى، الـدار البيـضاء ط١ ٢٠٠١، ص ٢٧.

(٤٠٠)محيى الدين اللاذقانى: تأملات أولية فى ملامح النظام الثقافى العربى الجديد، جريدة الشرق الأوسط ١٤ فبراير ١٩٩٥.

*رأى حسن حنفى فى تسعينيات القرن العشرين أن قضية نصر أبو زيد قد أخذت هذه الأبعاد المأساوية لأنها وصلت إلى الصحافة، وأن هذه القضايا لا يجب أن يتحدث فيها العوام ثم ردد قولاً تراثياً للإمام الغزالى "إلجام العوام عن علم الكلام" (حسن حنفى حـوار الأجيـال، دار قبـاء، القاهرة ١٩٩٨، ص ٤٣٣، وهو ما يثير إشكالية المثقف النخبوى ومدى قدرته على تنوير الجماهير ومواجهتها برأيه متحملاً النتائج كاملة ويعود بالزمن العربى إلى عصر الغزالى..!


SYRIAN



المركز العربي للدراسات الإستراتيجية
The Arab Center for Strategic Studies

سلسلة دراسات شهرية
Monthly Monograph Studies

من مهام المركز

يعتبر المركز العربي للدراسات الاستراتيجية مؤسسة علمية مستقلة غير هادفة للربح ، تأسس العام 1995م لدراسة القضايا الاستراتيجية المتعلقة بواقع المنطقة العربية ومستقبلها، على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية عبر :

1) البحوث والدراسات الاستراتيجية ،وتوفير المعلومات الدقيقة لصانعي القرار في الوطن العربي.

2) الدراسات والبحوث التي تسهم في إحياء التراث العربي الاسلامي، وإبراز ملامح الشخصية العربية، والاهتمام بالسكان والبيئة وقضايا المرأة والأسرة، لصياغة السياسات التنموية العربية وتعزيز التعاون العربي.

3) اسهام الباحثين العرب والمؤسسات الأهلية والحكومية في إعداد استراتيجيات وبرامج التنمية الشاملة، وتنفيذ البرامج التدريبية لتطوير قدرات قيادات العمل الأهلي وتعزيز دورهم التنموي.

4) المساهمة في الحياة الفكرية العربية ، وتعميق الحوار حول المتغيرات في المنطقة أو [illegible].

5) النهوض بعدد من الانشطة كعقد المؤتمرات والندوات والمحاضرات وحلقات النقاش و[illegible] الفكرية وغير ذلك من النشاطات العلمية.

الجمهورية العربية السورية
دمشق- ص.ب :(36843) أو (36844)
فاكس : 011 6132112 / 00963
هاتف : 011 6132111 / 00963
الموقع الالكتروني : www.acss-center.com
البريد الالكتروني : acss@mail.sy